بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

التفسير: لقد استهلّت هذه السورة أيضًا بمقطع "طس" كما استهلّت به السورة السابقة، وكما قلنا من قبل إن "الطاء" اختزال للطيف و"السين" للسميع. بيد أن هناك فرقًا وهو أنه قد ورد في مقطع السورة السابقة حرف الميم فقيل: ﴿طسم﴾ والميم اختزال للمجيد، وهذا يعني أن تلك السورة تركز على بيان صفة الله المجيد بوجه خاص، أما هذه السورة فمع أن موضوعها نفس السورة السابقة إلا أنها لا تركّز على بيان صفة الله ﷻ "المجيد" كالسورة السابقة. ومن الأدلة الظاهرة على هذا أن السورة السابقة تتحدث عن محمد رسول الله ﷺ أكثر، إذ قد ظهر مجد الله تعالى بواسطته ﷺ أكثر. أما هذه السورة فتتحدث عن موسى وداود وسليمان – عليهم السلام – الذين كانت حياتهم وحياة أتباعهم دليلاً على كون الله ﷻ عالمًا بالأسرار الروحانية وسميعًا للدعاء، ولكنها لم تدل على صفة الله "المجيد" بقدر ما دلت عليها حياة النبي ﷺ وأصحابه.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ...الخ﴾.. أي أن آيات هذه السورة آياتُ القرآن وآياتُ كتابٍ يُبين مضامينه بنفسه وهو هداية وبشارة للمؤمنين، ولكن ليس للمؤمنين الذين يُعلنون إيمانهم بأفواههم فقط، بل للمؤمنين الذين يُقيمون الصلاة ويُؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون.

الحق أن الله تعالى قد ذكر في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ ميزةً للقرآن الكريم لا تُوجد في سائر الصحف السماوية على الإطلاق، إذ لا توجد في الدنيا صحيفة

سماوية تُقرأ بالكثرة التي يُقرَأ بها القرآن الكريم. ولذلك قال الله ﷻ هنا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾.. أي إنها آياتُ تلك الصحيفة التي من أكبر خصوصياتها أنها "القرآن" أي أنها تُقرأ بكثرة بحيث لا يُباريها كتاب سماوي آخر في العالم.

الحق أنه كان لزامًا على الكتاب الذي كان أكثر نفعًا للدنيا أن يكون "قرآنًا".. أي أن يُقرأ بكثرة. ومن الغريب حقًّا أنه برغم توافر تراجم التوراة والإنجيل بكثرة إلا أن هذه الكتب لا تُقرأ بقدر ما يُقرأ القرآن الكريم، مع أنه باللغة العربية ويقرأه الناس بالعربية نفسها.

يقول المعارضون إن قراءة القرآن بكثرة راجعةٌ إلى التدابير الكثيرة التي اتُّخذت في هذا السبيل كقراءته في الصلوات مثلاً، فقراءته بكثرة أمر طبيعي.

والجواب أن قراءة القرآن الكريم بكثرة ليس بأمر طبيعي رغم اتخاذ هذه التدابير، وذلك للأسباب التالية:

أوّلاً: ليس ضروريًا أن يُؤمن الناس بكتاب يُؤمرون بقراءته في صلاتهم. ذلك لأن الكثرة أمر نسبي، إذ لا يمكن أن يُقرأ القرآن أكثر من الكتب الأخرى إلا إذا كان عدد المؤمنين به كثيرًا. وإقناع الناس بالإيمان به بكثرة ليس من الأمور الطبيعية. لا شك أن السيخ يقرأون كتابهم "غرانث"، ولكنه ليس "قرآنًا" أي لا يُقرَأ بكثرة، لأن عدد المؤمنين به محدود جدًا. فلا شك أن كثرة قرّاء القرآن كان نبأً من الله تعالى عن كثرة المؤمنين به.

وثانيًا: أن وُجود المؤمنين بكتاب بكثرة لا يعني بالضرورة أنهم سيعملون بما يأمر به، ولكنا نرى أن المسلمين يقرأون القرآن بكثرة كما أمرهم الله تعالى رغم أنه بلغة أجنبية للأكثرية منهم، فثبت أن ذلك ليس بأمر طبيعي أيضًا.

وثالثًا: ما دامت الكتب السماوية تنـــزل من الله ﷻ، وما دام الله ﷻ هو عالم الغيب ولا يمكن أن تخفى عليه التدابير التي تُتخذ لقراءة القرآن بكثرة، فلماذا لم يتخذها من أجل الكتب الأخرى يا ترى؟ أو لماذا لا يتخذها الآن المؤمنون بتلك الكتب؟ فثبت جليًا أن الله ﷻ أراد لهذا الكتاب وحده أن يكون قرآنًا، وما دام الله

ﷻ الذي أنـــزل الكتب كلها لم يتخذ إلا هذا الكتاب وحده ليصبح "قرآنًا" فثبت أنه أفضل الكتب حتمًا.

رابعًا: يقول البعض أن الناس يحفظون القرآن الكريم لأنه نـــزل بصيغة تجعله أسهلَ حفظًا من الكتب الأخرى. ونحن نقول: لماذا لم تنـــزل الكتب الأخرى بصيغة كهذه؟ ثم هل صياغة كتاب بهذا الأسلوب أمر سهل؟

وباختصار إن كون هذا الكتاب الكريم "قرآنًا" إنما هي ميزة فريدة له لا توجد في الصحف الأخرى. إن بعض "الآرية الهندوس" يقرأون آيات من القرآن الكريم أثناء المناظرات ثم يتباهون أمام المسلمين ويقولون: انظروا نحن نستطيع قراءة كتابكم، ولكنكم لا تستطيعون قراءة كتابنا! والحق أن قولهم هذا تأييد لدعوى القرآن الكريم، إذ يؤكدون بذلك أن القرآن سهل القراءة فعلاً حتى إن أعداءه أيضًا يستطيعون أن يتعلموه بلغته. بينما نجد أن المؤمنين بالكتاب الهندوسي "الفيدا" أنفسهم لا يقدرون على قراءته. فثبت أن الاسم الذي أُطلق على كتاب المسلمين في تلك الظروف غير المواتية كان اسمًا على مسمى، حيث إن العدو نفسه قد شهد بفعله على صدقه. فقول الهندوس هذا لا يقدح في القرآن الكريم في الحقيقة، بل هو تصديق لكتابنا الكريم.

ومما يسترعي الانتباه أن الله ﷻ قال في سورة "الحجر": ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾، بينما قال في هذه السورة: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾، حيث قدّم لفظ "الكتاب" على لفظ "القرآن" في موضع مضيفًا صفة "المبين" إلى القرآن، بينما قدّم في موضع آخر لفظَ "القرآن" على لفظ "الكتاب" مضيفًا صفة "المبين" إلى الكتاب. لماذا هذا الفرق يا ترى؟

فليكن معلومًا أنه في "سورة الحجر" قد ذكر الله ﷻ الكافرين بعد قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ فقال: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، أما هنا في سورة النمل فذكر المؤمنين بعد قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ حيث قال: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ومن الواضح أن الكافرين لا يقومون بتلاوة القرآن الكريم، وإنما تتوقف معلوماتهم عنه على ما يسمعونه من المسلمين،

والسماع وثيق الصلة بلفظ "القرآن"، فالقرآن – أي القراءة – هو المبين بالنسبة للكفار. أما المؤمنون فإنهم يقرأون كلام الله ﷻ وقراءتهم أكثر من سماعهم، مثلاً إذا كان المؤمن يقرأ جزءًا واحدًا من القرآن الكريم فربما لا يسمع منه ربع ما يقرأ، فثبت أن علمهم ذو صلة بصفة "الكتاب"، فالكتاب هو المبين بالنسبة لهم، ومن أجل ذلك جاء لفظ "القرآن" مقرونًا بصفة "المبين" في "سورة الحجر"، بينما ورد لفظ "الكتاب" مقرونًا بصفة "المبين" في هذه السورة.

أما تقديم لفظ "الكتاب" في سورة وتقديم لفظ "القرآن" في سورة أخرى فالحكمة في ذلك أن الكافر يكون على صلة بهذا الوحي بصفته "قرآنًا".. أعني أنه يسمع كلماته من أحد، ثم إذا كان طيب القلب آمن به وأوجب على نفسه العمل به. أما المؤمن فهو يتوجه إلى قراءته بعد إيمانه به، فالصفة القرآنية التي كانت أولى بالكافرين ذكرها قريبًا منهم وما كانت أولى بالمؤمنين ذكرها قريبًا منهم.

وهناك حكمة أخرى عندي في تقديم لفظ "الكتاب" على "القرآن" في سورة الحِجر وتقديم لفظ "القرآن" على "الكتاب" في سورة النمل، وهي أن التركيز على صفة "الكتاب" أكثر منه على صفة "القرآن" في سورة الحِجر؛ حيث يُذكر الشيء الكبير قبل الشيء الصغير لبيان الدرجة والمقام. أما في سورة النمل فالتركيز فيها على صفة "الكتابة" أكثر منها على صفة "القراءة"، ولذلك قُدم لفظ "القرآن" على "الكتاب". وهذا يعني أن "القرآن" و"الكتاب" ليسا اسمين بل هما صفتان للوحي القرآني حيث قِيل إنه "كتاب" و"قرآن" أيضًا، فكان لفظ "الكتاب" نبأً بأنه سيُكتَب، وكان لفظ "القرآن" نبأً بأنه سيُقرَأ بكثرة. وهاتان الصفتان لا تتوفران معًا في أي كتاب سماوي سوى القرآن الكريم. أعني أنه موجود كتابةً، ويُتلى بكثرة لا يُتلى بها أي كتاب سماوي آخر في العالم. لا شك أن التوراة والإنجيل أيضًا يُقرَآن ولكنهما لا يُقرَآن بالكثرة التي يُتلى بها القرآن الكريم، هذا أولاً.

وثانيًا لقد هيأ الله ﷻ للقرآن الكريم عشّاقًا يحفظون كل كلمة منه ويتلونه بأنفسهم كما يقرأونه على الآخرين أيضًا آناء الليل وأطراف النهار. ولكن لا يوجد في الدنيا حافظ واحد للتوراة ولا للإنجيل، ولا يوجد فرد واحد يحفظ كل

كلمة من كتاب "الفيدا" الهندوسي، وهذا هو حال "الزند" و"الأفستا". إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يُقرأ كتابةً ويُحفَظ عن ظهر قلب أيضًا، ثم إنه يُتلى في الصلوات أيضًا. وبما أن سورة النمل تُركز على إبراز تأثير القرآن الكريم كتابةً أكثر منه تلاوةً فلذا قد قُدّم فيها لفظ "القرآن" على لفظ "الكتاب".

وهناك حكمة أخرى في هذا التقديم والتأخير، وهي أن سورة الحجر تتحدث عن الأنبياء الذين لم يكن في أممهم رواج للكتابة، بل كانوا يضبطون العلوم بحفظها عن ظهر قلب، مثل آدم وإبراهيم ولوط وشعيب وصالح وغيرهم – عليهم السلام. وبما أن الخطاب في سورة الحجر موجه إلى شعوب هؤلاء الأنبياء فقد جاءت كلمة "القرآن" مقرونة بصفة "المبين"، وذلك للإشارة إلى أن هذا الوحي سينفع هذه الشعوب بصفته "قرآنًا" أكثر، ولكن الله ﷻ زاد هنا كلمة "الكتاب" أيضًا للإشارة إلى حفظه لهذا الوحي حفظًا تامًا. أما في سورة النمل فجاءت كلمة الكتاب مقرونة بصفة المبين لأن هذه السورة تُركز على بيان وقائع موسى وداود وسليمان– عليهم السلام – الذين كانوا من بني إسرائيل حيث كانوا يعتمدون على الكتابة أكثر من الحفظ، وبما أنه كان مقدرًا أن ينفع القرآن الكريم أمم هؤلاء الأنبياء بصفته كتابًا أكثر منه قرآنًا فلذلك قد تم التركيز هنا على "الكتاب" أكثر منه على "القرآن". بيد أن الله ﷻ قد ذكر هنا كلتا الصفتين "الكتاب" و"القرآن" للإشارة إلى أن هذا الوحي سيُكتب ويُحفظ أيضًا، إلا أن الأمم التي تعتمد على الكتابة ستنتفع من هذا الكتاب من خلال كتابته أكثر، وهذه السورة تُخاطب هذه الأمم نفسها. وكأن هذا الوحي "قرآن مبين" للأمم التي تعتمد على الحفظ عن ظهر قلب أكثر، وأنه "كتاب مبين" للأمم التي تعتمد على الكتابة أكثر.

ويتضح بالتدبر في القرآن الكريم أن كلمة "قرآن مبين" قد وردت فيه مرتين، بينما تكررت فيه كلمة "كتاب مبين" اثنتي عشرة مرة، وفي هذا إشارة إلى أن تأثير القرآن الكريم يكون أوسع نطاقًا من حيث كونه كتابًا، وأن أكثر الناس سينتفعون منه ككتاب، وهناك فئة منهم ستنتفع من بركاته بحفظه عن ظهر قلب. وهكذا قد

نبه الله تعالى المسلمين أن يهتموا بترويج التعليم أكثر لينتفع الناس من بركات القرآن أكثر فأكثر.

والميزة القرآنية الثانية التي قد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هي أنه كتاب.. أي أنه موجود بشكل مكتوب ومحفوظ، أما الصحف الأخرى فهي مكتوبة الآن ظاهريًا فقط، ولم تعُدْ مكتوبة في الحقيقة، وأن عباراتها نفسها تدل على أنها أصبحت مشوهة محرفة. كما أن لفظ "الكتاب" يعني الوجوب، وعليه فالمراد أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يعمل به الناس الآن. وبالفعل لا يزال هناك ملايين الناس الذين يعملون بكل حكم من أحكام القرآن حتى اليوم، بينما لا يعمل الناس بالتوراة والإنجيل والزند والأفستا إلا قليلا. فثبت أن القرآن الكريم هو الكتاب سواء من حيث كونه قد كُتب وحيه أولاً بأول، وأنه محفوظ حتى اليوم تمامًا كما نـــزل على محمد رسول الله ﷺ، أو من حيث إنه الكتاب الوحيد الذي يُعمَل به في العالم. لا شك أن أتباع الديانات الأخرى يطبعون كتبهم السماوية ويؤمنون بأنها وحي الله تعالى، بل يتضايقون إذا اختلف أحد مع ما ورد فيها من تعاليم، ولكنهم يضربون بها عرض الحائط فيما يتعلق بالعمل بها. وهذان الأمران ثابتان بحيث لا غبار على ذلك.

يقول المستشرق الألماني نولدكه:

"Slight clerical errors there may have been, but the Koran of Othman contains none but genuine elements- though sometimes in a very strange order. All efforts of European scholars to prove the existence of later interpolations in the Koran have failed."

قد يوجد في القرآن أخطاء إملائية طفيفة، ولكن القرآن الذي قدّمه عثمان للعالم لا يحتوي إلا على المادة الأصلية (التي قدّمها محمد ﷺ)، وإن كان ترتيبه يبدو غريبًا جدًّا في بعض الأحيان. ولقد فشلت محاولات العلماء الأوروبيين تمامًا لإثبات وجود أي إضافات لاحقة أو تحريف في القرآن. (الموسوعة البريطانية، تحت: Koran)

ويقول السير وليام موير:

"We hold the Cur'an to be as surely Mahomet's word, as the Mahometans hold it to be the word of God."

أي نتوصل إلى نتيجة أن القرآن المتداول اليوم هو بكل يقين نفسُ كلام محمد الذي يؤمن المسلمون بأنه كلام الله. (Life Of Muhammed: by Sir William Muir p. 562-563)*

وعلى النقيض نجد كبار القسيسين أنفسهم يعترفون أن التوراة والأناجيل قد أصبحت محرفة ومبدلة. إذًا لا تُوجد في عالم الأديان كله اليوم صحيفة سماوية يمكن أن تُسمى "كتابًا" بمعنى الكلمة سوى القرآن الكريم، الذي لا يزال كل لفظ من ألفاظه بل كل حركة من حركاته محفوظة كما نـــزلت على محمد رسول الله ﷺ.

وفيما يتعلق بالعمل، فبرغم أن النصارى يتباهون بتعليم المسيح القائل: "لا تقاوموا الشر بل مَن لطَمك على خدّك الأيمن فحوِّلْ له الآخرَ أيضًا" (متى ٥: ٣٩)، ولكن لا أحد يعمل بهذا التعليم في أي مكان في العالم. هناك كتاب واحد فقط يُعمل به في العالم وهو القرآن الكريم الذي يأمر أنكم إذا قبضتم على الجاني فعاقِبوه، ولكن إذا رأيتم أن العقاب سيُفسده أكثر وأن العفو عنه سيولد فيه الندامة، فيحاول إصلاح نفسه، فاعفوا عنه، لأن واجبكم هو إصلاح الناس، وليس أن تعاقبوا أحدًا بدون سبب أو تعفوا عنه بشكل غير مناسب.

---

* ويقول أيضًا:

"What we have, though possibly created by himself, is still his own."

هذا الكتاب الذي بين أيدينا، بالرغم من أنه من الممكن أن يكون من اختراع محمد (ﷺ)، إلا أنه ما زال هو نفسه. (حياة محمد ص ٥٦٢)

ويضيف قائلا:

"We may upon the strongest presumption affirm that every verse in the Qur'an is genuine and unaltered composition of Muhammad himself."

أي أننا نستطيع الجزم – بناءً على قياسات قوية – بأن كل آية في القرآن الذي بين أيدينا هي آية أصلية غير محرفة، بل إنها هي هي كما أوردها محمد (ﷺ) بنفسه. (المرجع السابق)

وبعد قوله بأن ترتيب القرآن أمر غير مفهوم يستطرد قائلا:

"There is otherwise every security internal and external that we possess the text which Muhammad himself gave forth and used."

أي لدينا جميع البراهين القاطعة، الداخلية أو الخارجية، على أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو نفس الكتاب الذي قدّمه محمد واستعمله. (المرجع السابق ص ٥٦١) *(المترجم)*.

قُصارى القول إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يستحق بكل جدارة أن يُسمَّى "كتابًا" من حيث العمل به، أما سائر الكتب الأخرى فقد أصبحت معطلة من هذا المنظور.

ثم إن القرآن الكريم لا يزال "كتابًا" من حيث إن العمل به يجعل الإنسان مقربًا عند الله ﷻ. وذلك أن أئمة اللغة قد قالوا عن لفظ الكتاب: ما يُكتَب فيه؛ سُمِّيَ به لجمعه أبوابَه وفصولَه ومسائله. ومن معاني الكتاب أيضًا: الفرضُ، الحكمُ، القدر، المكتوب، وعلى ما يكتبه الشخص ويرسله. وكتَب السِّقاءَ: خَرَزَه بسِيرين؛ وكتَب الناقة: ظأَرها فخزم منخريها بشيء لئلا تشمّ البوّ". (الأقرب)

فاتضح من هذه المعاني أن الكتاب يعني في الأصل الجمع. فيُسمّى الكتاب كتابًا لأنه يجمع بين دَفَّتَيْه مضامين شتى، وتُسمَّى الرسالة كتابًا لجمعها بين صديقين، ويُسمَّى الحكم والفرض كتابًا لأن العامل به ينال مطلبه، ويُطلق الكتاب على القضاء والقدر لأن المرء لا يقدر على الفرار منه، بل لا بد أن يلقاه؛ كذلك يُسمى وحي الله كتابًا لأنه وسيلة القرب والجمع بين الله وعبده. فالكتاب الذي يُوصل العبد بربه يستحق أن يُسمى كتابًا، أما الكتاب الذي يفشل في ذلك فلا يستحق أن يُسمى كتابًا في الواقع. وهذه الميزة لا تتحلى بها الآن أية صحيفة من الصحف السماوية إلا القرآن الكريم، فإن العمل به يوصل العبد بربه ويجعله مقربًا عند الله ﷻ. وقد ركز القرآن الكريم على هذا الأمر جدًا، حتى قال الله ﷻ في القرآن الكريم إنه قد أودع الفطرةَ الإنسانية حُبَّ الاتصال به ﷻ، حيث قال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق:٣). لا شك أن من معاني هذه الآية أن الله ﷻ قد خلق الإنسان وقام بتطويره حين كان متعلقًا برحم أمه، ولكن لهذه الآية مفهوم آخر أيضًا وإليك بيانه:

إذا قيل في العربية: "خُلقَ فلان من كذا"، فيكون المعنى أنه مفطور عليه. فمثلاً قال الله ﷻ في آية: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾(السجدة:٨) ولا شك أن الله ﷻ خلقه من تراب، ولكنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾(الأنبياء:٣٨)، وهذا لا يعني أن الله ﷻ أخذ مادة اسمها العَجَل، فصاغها في

قالب وخلق الإنسان؛ إذ ليس هناك مادة اسمها العَجل، بل المراد أنه تعالى قد جعل العجلة في فطرة الإنسان. إذًا فقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ يعني أن الله ﷻ قد خلق الإنسان وقام بتطويره حين كان متعلقًا برحم أمه. كما يعني أيضًا أن الإنسان مفطور على حب أحد والتعلق به، وأنه يُريد بفطرته أن يصير لأحد. كان المسيح الموعود عليه السلام يقرأ علينا بيت شعر باللغة البنجابية ومعناه: "إما أن تصبح لأحد، أو يصبح أحد لك".

إذًا، فمن معاني قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أن الله ﷻ جعل في فطرة الإنسان الحب والتعلق بأحد ما، أي أنه خلقه بحيث لا يجد راحة ولا قرارًا ما لم يصبح لأحد. فما لم يجد ضالته المنشودة هذه يحب زوجته حينًا، وأخته حينًا، وأمه حينًا وأباه حينًا وأصدقاءه حينًا، وهكذا يظل تائهًا هائمًا في حبه إلى أن يجد الطريق للوصول إلى الله ﷻ وعندها يصبح لله وحده.

ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ وجد في وقعة بدر امرأةً قد فقدت ولدها، فكانت تبحث عنه في ساحة القتال، وكلما وجدت ولدًا احتضنته وقبّلته، وإذا علمتْ أنه ليس ولدها تركته باحثةً عن ولدها، حتى وجدتْه، فاحتضنتْه وجلستْ هادئة مطمئنة وأخذت تقبّله. فلما رأى النبي ﷺ هذا المشهد قال لأصحابه: هل رأيتم هذه المرأة كيف كانت قلقة بسبب ابنها، وعندما وجدته جلست هادئة مطمئنة، كذلك يظل الله قلقًا على عبده الذي ضل طريقه، وإذا تاب إلى الله ﷻ بصدق ووصل إليه فرح الله تعالى مثل هذه الأم.[٥]

إذًا، فالقرآن الكريم أعلن أن الله ﷻ قد أودع فطرة كل إنسان عاطفةَ حب الله والتعلق به ﷻ، ثم بيّن القرآن الكريم طرق الوصال بالله أيضًا.

---

[٥] نص الحديث كالآتي: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قدم على النبي ﷺ سبيٌّ، فإذا امرأة من السبي قد تحلُب ثديَها تسقي، إذا وجدتْ صبياً في السبي أخذتْه، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: للهُ أرحمُ بعباده مِن هذه بولدها". (البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله) (المترجم)

والواقع أن ما يُميز الدين الحق عن الأديان أو العقائد الأخرى هو التعلق بالله ﷻ، إذ من الممكن أن يكون المرء إنسانًا مجتهدًا، وتاجرًا ناجحًا، وصنّاعًا ماهرًا، وسخيًا كريمًا بدون أن يتبع دين الحق، ولكن من المحال أن يصل أحد إلى الله تعالى بدون اتباع دين الحق. هذا هو الشيء الوحيد الذي يُميز بين من يتبع دين الحق ومن لا يتبعه. والبديهي أن الواصل بالله تعالى من يتبع الطريق الذي يوصل إلى الله ﷻ، أما الذي لا يسير في ذلك الطريق فأَنَّى له أن يصل إليه تعالى. ومما لا شك فيه أن الله ﷻ ليس بشيء مادي ولا يقيم في مكان معين، بيد أن هناك طرقًا وسبلا للوصول إلى جميع الأشياء الروحانية والمعنوية. وعلى سبيل المثال إن التعلُّم ليس بشيء مادي، وإن معرفة اللغة أو الجغرافية أو التاريخ أو الحساب ليست بأمور مادية، ومع ذلك ثمة طرق محددة لتحقيق هذه الغايات، فما لم تتعلم اللغة لإتقانها، وما لم تدرس كتب علم الحساب لتحصيله، وما لم تُذاكر كتب الجغرافية من أجل علمها، وما لم تطالع كتب التاريخ من أجل معرفته، لن تصل إلى اللغة ولا إلى الحساب ولا إلى الجغرافية ولا إلى التاريخ. كذلك رغم أن الله ﷻ ليس شيئًا ماديًا إلا أن هناك طريقًا للوصول إليه، وقد أخبر الإسلام عنه فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾(آل عمران:٣٢).. أي يا محمد، بَشِّرِ الإنسانية وقُلْ إن كنتم تريدون أن تحظوا بقرب الله ﷻ فعليكم باتباعي، فسوف يُحبكم الله تعالى وتصبحوا من أحبّته.

ما أعظمَ هذه البشارةَ التي زُفّتْ إلى الدنيا! وكم تبثّ هذه الرسالة الأملَ والحياة في القلوب الميتة! والأمر الواقع أنه لا يوجد في الدنيا اليوم شخص واحد يمكنه أن يدعي أنه قد نال قرب الله ﷻ وتشرف بكلامه واطلع على أسرار الغيب من خلال العمل بالتوراة أو الإنجيل أو الفيدا أو الزند أو الأفستا، بينما كان ولا يزال بين المسلمين أناس أطهار حظوا بقرب الله ﷻ وتمتعوا بأنواره وبركاته. بل إن الإسلام يعد المسلمين وعدًا أبديًا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ

تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾(فُصِّلت:٣١-٣٢)

لقد ثبت من هنا أن الإسلام يعلن أن باب قرب الله ﷻ مفتوح على مصراعيه لكل مؤمن، وأن الناس لو اتبعوا محمدًا رسول الله ﷺ بصدق لأدخلهم الله في أحبته وشرّفهم بإلهامه وكلامه، ونصرهم في المحن، وكتب لهم الانتصارات والبركات بشكل خارق. أما الصحف الأخرى فليس بينها كتاب واحد يقدر على أن يهب المؤمنين به واحدًا بالملايين من البركات التي يعِد بها القرآن الكريم المؤمنين به.

فثبت أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يستحق أن يُسمى كتابًا حقيقةً، أما الصحف الأخرى فهي كتبٌ بالاسم فقط لا حقيقةً، لأنها عاجزة عن إيصال العباد إلى ربهم.

ثم إن القرآن الكريم ليس بكتاب فحسب، بل هو كتاب مبين أيضًا، أي أنه لا يوصل العبد بربه فحسب، بل يبين بالتفصيل كل ما يتعلق بالتقرب إلى الله ﷻ، ولم يقصر في بيان أي شيء ضروري للعباد من أحكام وأخلاق فاضلة واعتقادات صحيحة.

الحقيقة أن الذي هو في الخفاء والحجاب لا يمكن أن نعرف عنه شيئًا إلا إذا نادانا وهدانا إليه بنفسه. لنفترض أن هناك غرفة مقفل بابها من الداخل، ولا ندري من فيها، فكيف، يا ترى، نعرف ما بداخلها؟ فلو حاولنا التخمين بناء على قياسنا وحده لكان مثلنا كمثل العُميان الأربعة. يُحكى أنه كان في مدينة أربعة عميان، وجاء فيل إلى المدينة، فذهب الناس لرؤيته، فطلب منهم العميان اصطحابهم. فأخذوهم ولكن أنى لهم أن يروا الفيل. فقالوا فيما بينهم تعالوا نتلمس الفيل بأيدينا لنعرف كيف هو. فوقعت يد أحدهم على ذنب الفيل، ويد الآخر على أذنه، ويد الثالث على بطنه، ويد الرابع على خرطومه. ولما رجعوا جلسوا يصفون الفيل، فقال الذي لَمس ذنَبه: إن الفيل شيء طويل في آخره شعر. فقال الذي لمس أذنه:

لا، بل هو كغربال كبير. فقال الثالث الذي لمس بطنه: لا، إنه كالطبل. فقال الرابع الذي لمس خرطومه: كلا؛ بل هو شيء طويل لين.

فترى أن هؤلاء العميان لم يختلفوا في وصف الفيل إلا لأنهم لم يروه، وإنما وصفوه بناء على قياسهم فحسب. كذلك فإن الشيء الذي يكون خفيًا وراء الحجاب لا يمكننا وصفه، ومن حاول وصفه بناء على قياسه ورجمًا بالغيب سيخطئ في وصفه كما حدث مع العميان الأربعة. ونفس الحال بالنسبة لمعرفة الله ﷻ وتعاليمه، فإن هذا العلم لا يتيسر إلا بكتاب الله ﷻ، ومن أراده بطريق آخر كان مصيره كمصير العميان الأربعة، الذين لمس أحدهم خرطوم الفيل فظنه فيلاً، ولمس ثانيهم ذنبه فظنه فيلاً، ولمس ثالثهم بطنه فظنه فيلاً، ولمس رابعهم أذنه فظنه فيلاً.

إن العلماء الجاهلين يدعون في هذا العصر أن بإمكانهم معرفة الله ﷻ من خلال عقولهم، وعلى النقيض يقول بعض المشايخ الأغبياء ألا علاقة للعقل بالدين. والحق أن كلا الفريقين على خطأ، فإننا لا نستطيع معرفة الله ﷻ بالعقل، كما لا يمكننا فهم الدين بدون العقل، بل لا بد لنا من استخدام العقل لفهمه مثلما نفهم أي شيء معقول بالعقل، حيث يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٩).. أي يا محمد، قل للناس هذه سبيلي.. أي أني أدعو إلى الله ﷻ، وأنا وأتباعي على بصيرة فلا نقبل أي شيء إلا بالدليل والمنطق.

بيد أن هذا لا يعني أن بوسع المرء الوصول إلى الله ﷻ بناء على عقله فقط، كلا بل إن الدين هو هادينا إلى الله ﷻ، وأن العقل هو هادينا إلى الدين فليس لنا منه بُدّ، كما لا بد لنا من نبي لتوجيه العقل إلى الصراط المستقيم، ذلك لأن الذين حاولوا فهم الدين بمساعدة العقل وحده قد تعثروا دائمًا. هناك مثل باللغة البنجابية معناه: أنا الذي جئتُ من البيت فكيف تخبرني عن أحوال أهلي؟ ونفس الشيء ينطبق فيما يتعلق بالله ﷻ، فمن أراد لقاءه تعالى دلّه بنفسه على سبيل لقائه، ومن المحال أن يصل إليه بنفسه.

إذًا، فإن العلماء الذين يدّعون أنهم يقدرون على الوصول إلى الله ﷻ بمساعدة عقولهم فحسب لمخانين حقًّا، إذ من المحال الوصول إلى الله ﷻ إلا بمساعدته هو، وإن أكبر وأنجع وسيلة للحصول على هدى الله وإرشاده بهذا الصدد هو أن يتدبر الإنسان كلام الله ﷻ ويفهمه ويسعى للعمل به.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.. وكلمة ﴿هدًى﴾ جاءت هنا نكرةً على سبيل التعظيم، والمراد أنه هُدًى عظيمٌ، بمعنى أنه ما من درجة من الهدى إلا ويوصل إليها القرآن الكريم. ذلك لأنه مما لا شك فيه أن كلاً من التوراة والإنجيل والزند والأفستا وغيرها من الصحف كان هدًى للناس في زمنه، ولكن الهدى الكامل الذي بلغ بالناس أوج الكمال والذي لا حاجة بعده إلى هدى آخر إلى يوم القيامة إنما هو القرآن الكريم. ولذلك ذكر الله ﷻ مدارج مختلفة للهدى في موضع آخر من القرآن فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾(محمد:١٨). أي أن الذين يبدأون السلوك في سبيل الهدى يزيدهم الله هدى على هدى، ذلك لأن الله ﷻ كما هو غير محدود كذلك فإن مدراج قربه بلا حدود. ومن كمال القرآن أنه يهدي السالك عند كل مرحلة في سيره الروحاني للتقرب إلى الله ﷻ، وليس هناك مقام يمكن أن يستغني فيه المرء عن الهدى القرآني، كلا بل هو محتاج إلى هديه في هذه الرحلة الروحانية من بدايتها إلى نهايتها، ولا يزال القرآن الكريم يرشده ويمدّه بأنواره وبركاته عند كل خطوة إلى أن يصل إلى الله ﷻ.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.. أي أن القرآن الكريم لا يهدي الإنسان إلى درجات غير متناهية من قرب الله ﷻ فحسب، بل إنه يؤيده بالآيات ويعطيه البشارات أيضًا. ذلك لأن اهتداء المرء وتَقَرُّبَه من الله ﷻ أمرٌ روحاني لا يُرى بعيون مادية، فإذا لم تظهر لتأييد المؤمنين آيات من عند الله تعالى فيشك الناس فيما يدّعونه من قربه ﷻ. ودفعًا لهذا اللبس يؤيد الله المؤمنين بنصره دائمًا، ويُنزل لهم آياته ليقوي بها إيمانهم ويقيم الحجة على أعدائهم، مما يكون دليلاً على أنهم من المهتدين فعلاً وأنهم من عباد الله المقربين. إن المفتري الكذاب يمكن أن يدعي بقرب الله ﷻ، ولكنه لا يقدر على إنزال الآيات الإلهية لتأييده، ولكن إذا شملت نصرةُ

الله وتأييده أحد المدعين، ونـــزل عليه وحي الله وإلهامه، واستُجيبت أدعيته بشكل غير عادي، وفاز في مقاصده فوزًا بعد فوز، وفشل أعداؤه في مسعاهم، لكان هذا دليلاً على صدقه في دعوى القرب من الله ﷻ. ويعِد القرآن الكريم بتوافُر هاتين الميزتين في الذين يعملون بأحكامه، فإذا عملوا بهذا الهدى الأبدي ظلوا يتقربون عند الله ﷻ، كما سيَنـــزل الله ﷻ بنفسه من السماء لتأييدهم ويبشرهم عند اشتداد الخطوب والمحن، ويكتب لهم الغلبة على أعدائهم ويجعلهم فائزين في هدفهم الذي يقومون من أجله.

ثم يبين الله ﷻ أنه مما لا شك فيه أن القرآن هدى وبشرى، ولكن لا هداية فيه ولا بشرى للذين يدّعون الإيمان بأفواههم ولكن لا يعملون بحسبه، فلا يؤدون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يوقنون بالآخرة. فهؤلاء لا يهتدون بالقرآن، ولا يصحبهم تأييد الله ولا بركاته، إنما يتمتع بثمار هدي القرآن وبشاراته الذين يُصلّون مع الجماعة، ويخرجون الزكاة، ويوقنون بالآخرة.

الحق أن عبادة الله ﷻ هي أهم ركن من أركان الدين، والحق أنه بمثابة القلب والدماغ للدين. وإذا خلا الدين من عبادة الله ﷻ أصبح مجموعة من التقاليد والعادات فحسب، وبات الادعاء بوصال الله ﷻ كذبًا وزورًا، ولذلك قد أخبر الله تعالى هنا أن أول صفة للمؤمنين أنهم يقيمون الصلاة.

واعلم أن المراد من ﴿يُقِيمُونَ﴾ أنهم يصلّون جماعةً كما يحثّون الآخرين على أداء الصلاة.. أي أنهم يلتزمون بأداء الصلاة جماعة، إذ لو كان المراد أداء الصلاة بدون جماعة فقط، لقيل: "يصلّون"، ولكن الله ﷻ قال هنا: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، وقال في مواضع أخرى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، و﴿أَقَامَ الصَّلَاةَ﴾، والبديهي أن الإقامة إنما تكون في صلاة الجماعة فقط. إذًا، فمن أكبر علامات المؤمنين المذكورة هنا أنهم يواظبون على الصلاة بأنفسهم كما ينصحون الآخرين بأدائها.

لقد رأيت أن بعض الناس يواظبون على الصلاة، ولكنهم لا يهتمون بصلاة أهلهم وأولادهم، مع أنهم لو كانوا مخلصين حقًا لم يتغاضَ أحد منهم عن ابنه أو زوجته أو أخيه أو أخته إذا ترك الصلاة.

كان في جماعتنا أخ مخلص وقد تُوفي الآن، لقد شكاه ابنه إليّ ذات مرة وقال إن والده لا يرضى بأن يشترك في جريدة الجماعة "الفضل". فكتبت إلى أبيه: لماذا لا تحقق رغبة ابنك؟ قال: إني أريد أن يتمتع ابني بحرية تامة في دينه، فيتدبر في دينه بدون أي ضغط من أي طرف. فكتبتُ إليه: إنك تظن أن قراءته جريدة "الفضل" ستؤثر على أفكاره فلن يتمتع بالحرية الدينية، ولكن هل اتخذتَ أي تدبير كيلا يؤثر فيه أساتذته وكتبه وأصدقاؤه؟ وما دام كل هؤلاء يؤثرون فيه فهذا يعني أنك تريد لابنك أن يأكل السم، ولا تريده أن يتناول الترياق.

مجمل الكلام أن إقامة الصلاة ضرورية جدًا، ومن معاني "إقامة الصلاة" أداؤها مع الجماعة، وبإخلاص وخشوع وهدوء، ومع كل شروطها، كما يعني حثّ الآخرين عليها. ورد في الحديث أن الصلاة وسيلة للقاء العبد بربه، وهذا يعني أن الله ﷻ يريد بالصلاة أن يصطبغ المؤمنون بصبغة الله ﷻ التي يبعث أنبياءه من أجلها، ومن خلال الصلاة يصطبغ المؤمنون بصبغته تعالى.

لقد كان النبي ﷺ شديد الاهتمام بأداء الصلاة جماعةً. فذات مرة جاءه شخص كفيف وقال: يا رسول الله، إن بيتي بعيد عن المسجد وأُعاني كثيرًا في الوصول إلى المسجد من أجل الصلاة، فاسمَحْ لي بأدائها في البيت – علمًا أن البيوت في المدينة آنذاك كانت طينية، وكانت مياه الأمطار تضر جدران البيوت عند تدفقها في الشوارع، فكان الناس يضعون أحجارًا مع قواعد الجدران لتحميها من المياه كما يفعل أهل بلادنا أيضًا. والكفيف لا يستطيع أن يمشي في وسط الشارع بسهولة ولذلك يمشي ملتصقًا بجدران البيوت دائمًا، وهناك خطر أن يتعثر بتلك الأحجار ويسقط ويُجرَح، ولذلك قال الصحابي الكفيف هذا الكلام – فقال النبي ﷺ: حسنًا، فصلِّ في بيتك ما دمتَ تُعاني في طريقك إلى المسجد. فعاد الكفيف إلى بيته، ولكن النبي ﷺ أمر أصحابه أن يدعوه، فلما رجع قال له: هل تسمع صوت الأذان في بيتك؟ قال: نعم. فقال النبي ﷺ: ما دام صوت الأذان يصل إلى بيتك فعليك أن تصلي في المسجد، وإن تعثرت وتجرحت في الطريق. (مسلم: كتاب المساجد، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء)

وكذلك قال النبي ﷺ مرة وددتُ أن آمر أحدًا ليؤمّ الناس صلاة العشاء أو الفجر نيابةً عني، وآمر رجالاً أن يحملوا الحطب، فأدور في المدينة وأحرق على الذين لا يحضرون صلاة الجماعة بيوتَهم.*

فبرغم أن النبي ﷺ لم يحرق أحدًا بالفعل، بيد أن قوله هذا يكشف أهمية صلاة الجماعة عنده ﷺ. والحق أن النبي ﷺ قد بين بهذا المثال أن الذين لا يؤدون الصلاة جماعةً يجعلون أنفسهم حطبًا لجهنم.

لا شك أن هناك حسنات أخرى كثيرة، ولكن الله ﷻ قد قدّم الصلاة على جميع الحسنات الأخرى، فلا بد للمرء من حضور المسجد في مواقيت الصلاة إلا لعذر أو لأمر طارئ. والمراد من الأمر الطارئ – على سبيل المثال – اندلاع حريق، فلا بد للمرء عندها أن يُطفئ النار أولاً ويصلي فيما بعد. أما الذي يُقصّر في أداء الصلاة مع الجماعة بدون عذر أو أمر استثنائي فإنه يرتكب جريمة كبيرة.

والأمر الثاني الذي تحثّ عليه هذه الآيات هو الزكاة. وضرورة الزكاة وأهميتها مرتبطة بالفقر. والحق أن الفقر لم ينفصل عن الناس أبدًا. يظن الناس عادة أن الزيادة في سكان العالم هي التي تؤدي إلى الفقر، ولكنه ظن خاطئ إذ نرى أن الفقر مستمر منذ القديم عندما كان عدد السكان قليلاً وأيضًا عندما كان عددهم كثيرًا. فرغم أن الناس كانوا قلة في زمن آدم عليه السلام إلا أن بعضهم كانوا فقراء بحسب القرآن الكريم حيث يقول الله ﷻ لآدم بصدد الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾(طه:١١٩-١٢٠). فما داموا يملكون وحدهم كل ما في الدنيا من الخيرات والثروات من ذهب وفضة وحديد ونحاس وأرض وثمر وزهر – إذ لم يسكن الأرض سواهم – فكيف، يا ترى، قِيل لآدم لو عشتَ خاضعًا لهذا النظام فلن تعاني أنت ولا أصحابك الجوعَ والعطش والعُري؟

* نص الحديث كالآتي: عن أبي هريرة أن رسول ﷺ قال: "والذي نفسي بيده، لقد هممتُ أن آمُرَ بحطب فيُحطَب، ثم آمر بالصلاة، فيؤذَّن لها، ثم آمر رجلا فيؤمّ الناسَ، ثم أخالف إلى رجال فأُحرق عليهم بيوتَهم." (البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة) (المترجم)

لقد تبين من هنا أنه كانت هناك إمكانية أن يجوع بعضهم ويظمأ بعضهم ويعرى بعضهم رغم امتلاكهم ثروات الدنيا كلها. ذلك لأن الثروة في الدنيا نوعان: ثروة كامنة وثروة فعلية. والثروة الفعلية أيضًا نوعان: أوّلهما: النقود أو ما يحل محلها في شراء الحاجات، وثانيهما: الحبوب وغيرها من السلع المستهلكة. ثم إن هذا أيضًا ينقسم إلى قسمين: أحدهما ما يستهلكه الإنسان مباشرة بدون أن يجهزه، وثانيهما ما يحتاج إلى التجهيز والإعداد. أما الثروة الكامنة فتُسمى بالإنجليزية wealth، والمراد منه ما يوجد في البلد من مصادر الثروة الطبيعية مثل: معادن الذهب والفضة. فلو امتلك أهل بلد معادن الفضة والذهب أو الأراضي الخصبة، فلا يعني ذلك أنهم يملكون المال والثروة حقيقة، ذلك لأنه ما لم تصل هذه الفضة والذهب إلى أيدي الناس، أو ما لم يكن عندهم أدوات الزراعة لزرع القمح أو القطن في أراضيهم الخصبة، لتعرضوا للجوع والعطش والعري حتمًا. أو إذا كانوا يجهلون الصناعة والحرفة والزراعة فسوف يموتون جوعًا وفاقة، وإن ملكوا من معادن الذهب والفضة ما يساوي بلايين البلايين، وإن ملكوا من الأراضي الخصبة التي لو أُلقيتْ فيها حبة أصبحت ألف حبة. فثبت أنهم يملكون الثروة ولكنها ثروة جامدة. ولكن لو أُقيم في الدنيا نظام – سواءً عن طريق الوحي أو الإلقاء والإلهام– يعلّم الناس شتى الفنون والمهارات من زراعة ونسيج وغيرهما مما ينهض بهم مدَنيًا، فلا بد أن يزول جوعهم وعطشهم وعريهم. وقد ورد في الروايات الإسلامية – وإن كانت ضعيفة – أن آدم عليه السلام علّم الناس الزراعة وأن "شيثًا" عليه السلام علّمهم النسج. فسواء أن آدم أو شيثًا أو غيرهما هو الذي علم الناس هذه الفنون والمهارات إلا أنه مما لا شك فيه أن الإلهام الإلهي قد ساعدهم بشكل مباشر في هذه الأمور في البداية. فقد صرح القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى علّم الإنسان بإلهامه ووحيه اللسان في البداية، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣٢)، فكما أن الله تعالى علّمهم اللغة كان لزامًا عليه في البداية أن يعلّمهم بوحيه وإلهامه شتى الفنون والمهارات وإلا لعانوا أحقابًا طويلة. فمثلاً لو جاء الناس نبيٌّ ونصحهم بالحراثة والزراعة وغرس الأشجار والبساتين، فمن يعمل بنصحه يجد الخبز للأكل، وينج من

الجوع والفاقة، أما الذين لا يطيعونه ولا يقومون بأعمال الحراثة والزراعة وحفر الآبار والنسيج ولا يتعلمون اللغة فسوف يظلون جياعًا وعطاشى وعريًا وبكمًا. إن هذه الفنون والمهارات مهما كانت بدائية في البداية حتى ولو كانت منحصرة في طريقة ستر عوراتهم بالجلود أو العيش على تناول الثمار مثلاً، إلا أنه لا يسعنا الإنكار أن الذين سيخضعون لهذا النظام ينجون من الجوع والعطش والعري، ومع ذلك سيظل هناك قوم فقراء أيضًا إذ لا مناص للناس من الحوادث والآفات والكوارث التي لا يملكون أمامها حيلة. لنفترض أنه كان في الدنيا إنسان واحد في البداية، وكان يملك جبال "كشمير" وأراضي "هزاره" ووديان "كابول"، وكانت في حوزته ثمار الدنيا كلها من عنب وإجاص وتفّاح ومانجو وما إلى ذلك، ولكنه كان مبتور اليدين ومقطوع الرجلين، فماذا عسى أن تنفعه هذه الخيرات والثروات، يا ترى؟ كلا؛ بل من المحتم أن يموت جوعًا وعطشًا. فثبت أنه برغم أن الدنيا كانت في بدايتها مليئة بالثروات والخيرات إلا أن الناس ما كانوا لينتفعوا منها، إذ كانوا يجهلون الفنون والمهارات. وعندما جاء آدم عليه السلام وعلّمهم شتى المهارات زال جوعهم وعطشهم وعريهم، بيد أن طبقة من المعوقين كالعُرج وغيرهم لم تستطع الانتفاع من هذه النعم كما ينبغي. لنفترض أنه كان في الدنيا كلها عندئذ خمسة عشرة شخصًا، بينهم اثنان من العرج، فكيف يمكن أن يُزيل هذان جوعهما وعطشهما ما لم يكن بينهم نظام مسؤول عن الاعتناء بهما.

والحق أن نبوّة آدم عليه السلام كانت تحتوي – أساسًا – على التعاليم البدائية التي حوّلت البشر البدائي إنسانًا، حيث علّم الناسَ شتى الفنون ومبادئ التمدن، ودعاهم إلى العيش معًا ومساعدة الفقراء وذوي العاهات. والظاهر أنه إذا تشكل مثل هذا المجتمع فلن يظل أحد فيه جائعًا ولا ظامئًا ولا عاريًا، لأنه إذا وُجد فيه بعض العُرج فيساعده الآخرون، وإذا وُجد فيه جائع فيشبع بطنه بالاشتغال بأعمال الزراعة أو التعدين؛ وهكذا يكسب الجميع المال ويزيلون معاناتهم أيضًا.

فثبت أن قضية الفقر ليست وليدة هذا العصر، بل نشأت منذ مجيء الإنسان إلى الدنيا. لقد كان الفقر موجودًا عندما كانت بضعة أفراد من البشر يملكون الدنيا

كلها، فدعت الحاجة إلى قانون ونظام، فأتى آدم عليه السلام إلى الناس برسالته ليلتزموا بالمبادئ والقواعد التي جاء بها فينجوا من معاناة الجوع والعطش. مما يعني أنه كانت هناك إمكانية في زمن آدم أيضًا لأن يعاني بعض الناس من الجوع والعطش والعري مع أن عدد سكان العالم لم يتجاوز عندها بضعة أفراد. أما بعد ذلك فقد ظلوا في ازدياد مستمر، فصاروا عشرين ثم مئة ثم ألفًا ثم عشرة آلاف ثم مئة ألف، حتى بلغ عددهم اليوم نحو مليارين ونصف المليار. إذًا، فكان من الممكن أن يوجد الفقر في الدنيا عندما كان فيها مئة شخص، وعندما كانوا ألفًا، وعندما كانوا مئة ألف أيضًا. ذلك أن الجوع والفاقة ليس أساسه المال. هناك فكرة خاطئة بين الناس أن الفقر راجع إلى كثرة سكان العالم. كلا، إنما الواقع أن الفقر أو الرخاء منوط بمدى استغلال الإنسان للخيرات التي أودعتها الطبيعة في الكون، وأيضًا على مدى عقله وذكائه في استعمالها. فمثلاً لو كانت الأرض مليئة بالذهب ولم توجد فيها الحبوب والغلال لم يسدّ الذهب جوع الناس، أو لو وجدوا الغلال ولكنهم لم يعرفوا طريق الخَبز لظلوا أيضًا جياعًا. فلا بد لهم في هذه الحالة من مساعدين، فيكسب بعضهم ويطبخ بعضهم وهلم جرًّا، ولأجل ذلك قد جعل الله سبحانه وتعالى الرجل والمرأة زوجين. إذًا، فهناك أمور عديدة لا بد منها للإنسان وإلا فلا مناص له من الجوع والعري. وهذا الوضع مستمر منذ بداية الإنسانية. لقد أتى على الإنسان زمان كانت موارد رزقه كثيرة، وكانت نسبة المعانين قليلة، إذ الواقع أن عدد المعوقين في المجتمع أو غير القادرين على العمل لمرض أو كِبر سنّ لا يتجاوز الاثنين بالمئة، ولكن قد يصل عدد العاطلين عن العمل نتيجة البطالة تسعين بالمئة، ذلك لأنه إذا ازداد عدد السكان في بلد ولم تزدد موارد الدخل فيه أصبح تسعة من عشرة من سكانه عاطلين عن العمل أحيانًا، ولكن ليس لأنهم معوقون بل لأنهم لا يجدون عملاً. إذًا، فبعد زيادة عدد سكان العالم تغيّر الوضع، ولم تعُد القضية كيف يمكن استخراج ثروات الأرض واستغلالها، لأن كثيرًا من الناس يبذلون كل ما في وسعهم ومع ذلك لا يجدون عملاً، بل قد مسّت الحاجة الآن إلى إيجاد أعمال جديدة.

إذًا، فالفقر والرخاء صِنْوانِ منذ بداية الإنسانية، وقد حاول الناس إزالة معاناة الفقر والفاقة بطرق شتى. فقد جاءت فترة في التاريخ قرر فيها الناس بأن هناك طائفة من الناس تستحق الحياة وفئة منهم لا تستحقها، وذلك كما حصل في الهند حين أصبح "الشوادر"* أكثر عددًا، فقال "البراهمة و"الكَهْتريين" أن لا حق للشوادر في الحياة، فإذا كانوا يموتون فليموتوا.

فنهبوهم وحرموهم كل حق من حقوقهم الاجتماعية. ثم جاءت فترة أخرى أخذ فيها الناس يقولون إن علاج الفقر إخراج الصدقات، فمن كان عنده مال كثير فعليه أن يساعد به الفقراء.

وباختصار لقد اتخذ الناس تدابير مختلفة لمكافحة الفقر، ولكن لم يكن هناك تدبير شامل قادر على إزالة معاناة الفقراء والمحرومين. إنما هو الإسلام الذي قدم حلاً حقيقيًا لهذه المعضلة، فأعلن أن الصدقات وحدها ليست حلاً مناسبًا للفقر، بل يجب أن يكون هناك نظام متكامل لمساعدة الفقراء والنهوض بهم. فأقام نظام الزكاة والعُشْر حيث يُؤخذ المال من الأثرياء تحت نظام ثم يُنفَق على الفقراء. كما اتخذ الإسلام لرعايتهم تدابير محددة أخرى. لا شك أن الحكومات أيضًا كانت تأخذ الضرائب، ولكن مصارفها لم تكن محددة. أما الإسلام فإنه فرض على الأثرياء أداء نسبة محددة من أموالهم في كل حال، كما حدد المصارف لهذه الأموال التي تؤخذ منهم، وبالتالي وضع نظامًا ثابتًا للإنفاق على الفقراء. وهذا النظام المتكامل بصدد الدخل والإنفاق لم يوجد عند أية أمة قبل الإسلام. لا شك أن الزكاة كانت

* تقسم الديانة الهندوسية أتباعها إلى أربع طبقات: ١- البراهمة: وهم الذين خلَقهم الإله "براهما" من فمه بزعمهم: منهم المعلّم والكاهن والقاضي، وإليهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم. ٢- الكاشتر (أو "كَهْتري"): وهم الذين خلقهم الإله من ذراعيه: يتعلمون ويقدّمون القرابين ويحملون السلاح للدفاع. ٣- الوَيش: وهم الذين خلقهم الإله من فخذه: يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال، وينفقون على المعاهد الدينية. ٤- الشُودر: وهم الذين خلقهم الإله من رجليه، وهم يشكّلون طبقة المنبوذين، وعملُهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة ويمتهنون المهن الحقيرة. (المترجم)

موجودة عند اليهود ولكنها كانت بصورة ناقصة (انظر الخروج ٢٣: ١٠-١١). أما الإسلام فقد أقام بسنِّ هذا القانونِ نظامًا رائعًا ينفع الإنسانية كنبراس في ساعات الظلام. ولكن الأسف أن المسلمين لم يُولوا هذا النظامَ الأهميةَ الكافية وأهملوه كليةً، فتلاشى كما يتلاشى ماء النهر القديم في الرمال. وذلك برغم أن أول عمل قام به النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة هو أنه جعل أصحاب المال والعقار والفقراءَ إخوةً، إذ كان الأنصار أصحاب مال وعقار، ولكن المهاجرين لم يملكوا شيئًا منها، فأقام النبي ﷺ بينهم المؤاخاة. فعمل به الأنصار إلى حد المبالغة والمغالاة، فلم يتقاسموا مع المهاجرين أموالهم وعقارهم فحسب، بل من كان عنده زوجتان عرض على أخيه المهاجر أنه مستعد أن يطلّق زوجته ليتزوجها (البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار). وهذا أول مثال للمساواة التي أقامها النبي ﷺ بين الناس بعد وصوله إلى المدينة فورًا، ذلك لأن أساس الحكومة الإسلامية لم يوضع إلا في المدينة. لم يكن عند النبي ﷺ في تلك الفترة أموال كثيرة، فكان الطريق الأمثل أن يختلط الغني بالفقير بحيث يجد كل إنسان في المجتمع شيئًا يأكله.

وقد عمل النبي ﷺ بهذه المساواة في إحدى الحروب أيضًا ولو بأسلوب آخر. ففي إحدى الغزوات علِم النبي ﷺ أن بعض المسلمين قد نفد زادهم، وأن بعضهم لا يزال عنده زاد كاف، فأمر النبي ﷺ الجميع أن يحضروا ما عندهم من الزاد، فجمعه في مكان وقد جعل لكل واحد منهم نصيبًا محددًا منه (البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو). فكانت هذه محاولة أخرى لإيجاد طعام لكل إنسان. فكان الجميع يأكلون منفردين ما استطاعوا ذلك، ولكن عندما تعذر هذا وكان هناك خطر أن يظل البعض جياعًا فقال النبي ﷺ لا أسمح لكم الآن أن تأكلوا فرادى، بل سوف أُطعم الجميع سويًّا. يقول الصحابة لقد عملنا بأمر النبي ﷺ بحذافيره، حتى إذا كان عند أحد منا تمرة واحدة رأينا أكلها خيانة كبرى، و لم نلبث حتى جئنا بها إلى مخزن الطعام. هذا نموذج ثانٍ للمساواة قدمه النبي ﷺ.

ثم جاءت الخيرات والثروات بكثرة حيث فتح الله ﷻ على نبيه ﷺ خزائنه، ولكن لم يرد الله ﷻ إقامة هذا النظام بكل تفاصيله إلا بعد النبي ﷺ لكي لا يقول الناس أنه كان خاصًّا بالنبي ﷺ، ولا يحق لأحد سواه إقامته.

على أية حال عندما أراد الله ﷻ إقامة نموذج مثالي للمساواة على يد النبي ﷺ قدّم الأنصار عقاراتهم وأراضيهم للمهاجرين، ولكنهم لم يرضوا بأخذها مجانًا، بل قالوا نقوم بزراعة أرضكم ونعطيكم نصيبكم من ريعها (البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار). لم يقصّر الأنصار في إعطاء إخوانهم ما عندهم، ولكن المهاجرين لم يقبلوا عرضهم شاكرين. ومثاله أن بعض الدول تقدّم لمواطنيها مساعدةً وفق نظام السلع المدعومة، ولكن بعضهم لا يقبلها، وهذا لا يعني أن الدولة مقصرة، بل الحق أنها قد أدت واجبها، ولكن الرجل لم يقبل عرضها. كذلك فإن الأنصار عرضوا على المهاجرين كل شيء، ولكن المهاجرين لم يأخذوا منهم شيئًا.

إذًا، فإن النبي ﷺ بدأ العمل بهذا النظام في حياته، حتى إنه لما دخل ملك البحرين في الإسلام أمره النبي ﷺ أن يعطي كل من ليس عنده أرضٌ مِن رعاياه أربعةَ دراهم وكسوةً كي لا يتعرض للجوع والعري.

أما بعد ذلك فأخذت الثروات تتدفق على المسلمين، وبما أنهم كانوا قليلي العدد مقارنة مع هذه الثروات، فلم تكن هناك حاجة إلى سنّ قانون جديد، لأن الهدف كان يتحقق على ما يرام، والقاعدة أن القوانين إنما تُسنّ عند الخطر، أما إذا لم يكن هناك خطر فالحكومة مخيرة في سنّ القانون أو عدمه. فلما توفي النبي ﷺ وانتشر المسلمون في شتى البلاد والأقطار، دخلت شعوب أخرى في الإسلام بكثرة. كان العرب يعيشون كشعب موحد محافظين على المساواة فيما بينهم، ولكن عند انتشار الإسلام في أقطار أخرى ودخول الشعوب المختلفة في الإسلام، أصبحت قضية تأمين الخبز لهم مشكلة كبيرة. فقام عمر ﷺ بإحصاء السكان كلهم وأقام نظام التموين (Rationing) الذي استمر إلى عهد الحُكم الأموي. وإن المؤرخين الأوروبيين أيضًا يعترفون بأن أول إحصاء للسكان في التاريخ هو ما قام به عمر

ﷺ. كما يعترفون أيضًا أنه لم يقم بهذا الإحصاء ليسلب أموال الناس، بل لتأمين الطعام لهم. تقوم الدول بإحصاء السكان لإكراههم على أن يكونوا لها كبش الفداء ويقوموا لها بالخدمات العسكرية، أما عمر ﷺ فلم يقم بإحصائهم ليجعلهم كبش الفداء، بل ليؤمّن لهم الطعام. فبعد هذا الإحصاء أخذت رعيّته كلها يحصلون على الطعام بحسب نظام خاص، كما يتلقون مساعدة مالية لسد الحاجات الأخرى. (تاريخ اليعقوبي: المجلد الثاني ص ١٥٠، أيام عمر بن الخطاب ﷺ، والطبري المجلد الخامس ص ٢٠٣: حملُه الدرة وتدوينه الدواوين، والموسوعة الإسلامية: عمر بن الخطاب)

وكان عمر ﷺ شديد الحذر بهذا الشأن، فلما فُتحت بلاد الشام في عهده وجاء زيت الزيتون، فقال عمر ﷺ للناس مرة: إن استعمال زيت الزيتون يسبب لي الغازات في البطن، فاسمحوا لي أن آخذ من بيت المال من السمن ما يساوي نصيبي من الزيت. (سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي، الباب التاسع والثلاثون، في ذكر قوله وفعله في بيت المال)

فهذه أول خطوة اتُّخذت في الإسلام لسد حاجات الناس. والبديهي أنه لو قام هذا النظام لم يبق بعده حاجة لأي نظام آخر، لأن سد حاجات جميع المواطنين من طعام وشراب ولباس وتعليم وعلاج وسكن سيصبح من مسؤوليات الدولة الإسلامية. وإذا سُدت هذه الحاجات فلن تبقى هناك حاجة لأي تأمين (Insurance). ولكن الذين أتوا بعدهم أخذوا، لسوء الحظ، يقولون أن الملِك مخيَّر في أن يعطي أحدًا شيئًا أو لا يعطي. ذلك لأن تعاليم الإسلام لم تكن قد رسخت فيهم بشكل كامل، فعادوا إلى ما كان يفعله قيصر وكسرى. وإنه من فضل الله ﷻ أن ذلك النهر القديم الذي بات غائبًا في الرمال قد أجراه الله ﷻ في قلبي ثانية، فأنا أول شخص في هذا العصر عرض هذا التعليم القرآني أمام الناس. وكثيرًا ما يسألني المسلمون بمن فيهم أساتذة الجامعات والطلبة قائلين: إذا كان هذا ما يعلّم الإسلام فلماذا غاب هذا التعليم؟ فأجيبهم دائمًا أن غياب هذا التعليم نفسه دليل على أنه من عند الله ﷻ، إذ لو كان من اختلاق بشر لظل راسخًا في قلوب الناس، لأن العقول تكون جاهزة لتعاليم البشر لأنها تكون مواتية للأوضاع السائدة، فغياب هذا

التعليم دليل على أنه من عند الله ﷻ. إن التعليم الإلهي يبدأ كموجة مرتفعة ثم يصيبها الانحطاط. ومن المقدر أن ترتفع موجة هذا التعليم الإلهي الآن ثانية، وستكون هذه المرة أرفع من المرة السابقة، ذلك لأن هذا ما نشاهده في نواميس الطبيعة أيضًا. عندما كنت طفلاً صغيرًا و لم أكن قد رأيت جبلاً، كنت أتخيل أن الجبل كمنارة عالية وأن الناس يصعدون عليه بمساعدة الحبال. ولكني لما رأيت جبال "شِمْله" أول مرة وجدت أن هناك ربوة تلو ربوة ثم ثالثة، وكل واحدة منها أرفع من السابقة، ولكن هناك انخفاض بعد ربوة أيضًا، وعندما يتقدم المرء من قمة الربوة الأولى يظن أنه يمشي إلى أرض منخفضة، ولكن الواقع أنه يصعد إلى ربوة هي أعلى من السابقة، ثم يصل إلى الربوة الثانية ثم ينـــزل من قمّتها فيُخيل إليه مرة أخرى أنه ينـــزل إلى أرض منخفضة، ولكن الحقيقة أن كل خطوة يتخذها تذهب به عاليًا، وهكذا يمشي منخفضًا ومرتفعًا حتى يصل إلى قمة الجبل. وهذا هو نفس المشهد الذي نراه في نواميس الطبيعة ونجده في ارتقاء العقول الإنسانية أيضًا. لقد عمل الناس بهذا التعليم الرباني لأنهم تلقّوه من النبي ﷺ مباشرة، ولكن بما أن ارتقاء العقول الإنسانية يكون كالموجات التي ترتفع تارة وتنخفض أخرى، فقد حصل الانحطاط بعد الموجة الأولى، ولكن قد ارتفعت الآن الموجة الثانية بواسطة المسيح الموعود عليه السلام وستكون أعلى من الأولى طبقًا لنواميس الطبيعة.

باختصار، إن بعد كل موجة انخفاضًا، فينسى الناس التعليم الحق. ولكن ما دام هذا النظام الإسلامي قائمًا فلا يبقى هناك حاجة لأي تأمين. ما هو التأمين يا ترى؟ إنما هدفه أن يمدّ أهلك وأولادك بالطعام واللباس والسكن بعد موتك. وما دامت الدولة مسؤولة عن سد حاجات جميع المواطنين بكل أنواعها، فما الحاجة إلى التأمين إذن؟ فالجميع سيجد غذاء وسكنًا وكساءً وتعليمًا وعلاجًا. وهذه هي المصارف الاجتماعية التي من أجلها أقام الإسلام هذا النظام الواسع للزكاة والصدقات والتبرعات. وقد بيّن الإسلام أن من علامة المؤمنين أنهم يعطون الزكاة، فيحظون بحب الخالق بخدمة خَلْقه. والحق أن أنجع وسيلة لكسب حب أحد في الدنيا إنما هو أن تحب بعض أحبته، ويمكننا رؤية صدق هذا القول يوميًا في أسفارنا

بالقطار. فإنك إذا قمتَ بمداعبة طفل لبعض الجالسين معك أو أعطيته قطعة حلوى فإن أباه يأخذ بالحديث معك بعد قليل وكأنه صديق قديم. ونفس الطريق متّبَع في العالم الروحاني أيضًا، فعندما ينفق المرء على عباد الله سدًا لجوعهم وإفلاسهم فإن الله ﷻ يقول إن عبدي هذا يقوم بخدمة أحبتي، فلندخله في زمرة المحبوبين. ورد في الحديث أن الله ﷻ سيقول لبعض الناس يوم القيامة: كنتُ مريضًا فلم تعُدْني، وكنتُ جائعًا فلم تُطعِمْني، وكنت عاريًا فلم تَكْسُني؟ فيقول العبد: يا رب، كيف يمكن أن تمرض أو تجوع أو تعرى، فإنك منـــزه عن النقائص كلها؟ فيقول ﷻ: كان بعض عبادي مريضًا، وبعضهم جائعًا، وبعضهم عاريًا، فلم تعُدْه ولم تُطعِمه ولم تُلبِسه، فكأنك لم تعُدْني ولم تُطعِمني ولم تُلبِسني. (مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض)

إذًا فإن الزكاة ركن مهم من أركان الإسلام، ومَن أهملها فقد أسخط الله ﷻ، إذ أهمل حقوق عباد الله الفقراء.

ثم يذكر الله ﷻ علامة أخرى للمؤمنين فيقول: ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.. أي أنهم يقدمون التضحيات باستمرار غير مبالين بما إذا كانوا ينالون جزاءها في الدنيا أم لا، لأنهم يوقنون بالحياة الآخرة، وهذا اليقين ينفخ فيهم من الشجاعة التي تدفعهم للقفز في نيران التضحيات بلا تردد. فعندما يُقاتل أحد الجنود في الدنيا فهل يقاتل لمنفعة شخصية؟ كلا، إن كل واحد منهم يعرف أنه سيُقتَل في الحرب، وكثيرًا ما يُقتَل بالفعل ولكن قومه ينتفعون من تضحيته. كذلك فإن الأم عندما ترضع ولدها فهل ترجو وراء ذلك أي فائدة؟ والواقع أن لبنها إنما هو من دمها، فكل جرعة يمتصها ولدها إنما هو دمها الذي يمتصه. ولو أن أمك رفضت إرضاعك وقالت: لماذا أُرضعه دمي، لما كنتَ حيًّا اليوم. إن أمّك أرضعتْك دمها فأنت حيٌّ اليوم، فمن واجبك الآن أن تُريق دمك ليحيا أولادك وقومك ووطنك. هل فكرتَ: ما هي الراحة التي نالها في الدنيا الصحابةُ الذين استُشهدوا في غزوة بدر. لقد تركوا آباءهم وأمهاتهم وأقاربهم وأصدقاءهم، وبعد أن ظلوا عرضة لأشد الاضطهاد طيلة ثلاث عشرة سنة، تركوا وطنهم مكة بقلوب متقطعة وجروح

دامية، علّهم يعودون سالمين إليها في يوم من الأيام. ولكن لم تمض على هجرتهم سنة ونصف إلا وفصلتْ سيوف الكافرين رؤوسهم عن أجسادهم، فسقطوا مضرجين بدمائهم في رمال محرقة في البرية بعيدًا عن وطنهم القديم ووطنهم الجديد أيضًا. ولو أن هؤلاء لم يقدموا هذه التضحية قائلين: ما هي الفائدة التي نجنيها، إذ إن غيرنا هم الذين سيجنون ثمار تضحياتنا، لما نال الإسلام القوة والعظمة التي نالها فيما بعد.

فمن وقائع غزوة أُحد أن النبي ﷺ بعث أُبيّ بن كعب ليبحث عن الجرحى ويتفقد حالهم. فوصل أُبيّ إلى سعد بن الربيع الذي كان قد أصيب بجراح بالغة وكان يلفظ آخر أنفاسه، فقال له: هل عندك رسالة تريد أن أبلّغها أقاربك؟ فتبسمَ سعد وقال: كنت أنتظر أن يأتيني مسلم لأحمله رسالتي، ولكني أرجوك أولاً أن تضع يدك في يدي وتعدني بتبليغ رسالتي إلى أهلها، ثم قال: أرجوك أن تبلغ إخواني المسلمين سلامي، وتقول لقومي وأهلي: إن رسول الله ﷺ أمانة ربانية عندنا، وقد دافعْنا عنه بمُهَجنا وأرواحنا، وها نحن نرحل الآن من الدنيا واضعين هذه الأمانة في أيديكم، فلا تقصّرُنّ في حفظها. (السيرة الحلبية: المجلد الثاني، غزوة أحد)

عندما يحين أجل المرء تخطر بباله أفكار شتى عن أهله وأولاده، فيقول: ماذا ستفعل زوجتي بعدي، ومَن سيرعى أولادي، ولكنك ترى أن ذلك الصحابي لم يترك أي رسالة كهذه، وإنما قال: يا قوم، ها نحن نغادر الدنيا مدافعين عن رسول الله ﷺ، فسيروا وراءنا على نفس الطريق. والحق أن هذه القوة الإيمانية في هؤلاء القوم هي التي جعلتهم يقلبون العالم رأسًا على عقب، ويطيحون بعروش قيصر وكسرى. كان قيصر الروم وكسرى الفرس مذهولين من أمر هؤلاء القوم، حتى كتب كسرى إلى قائده وقال: إذا كنت لا تستطيع أن تهزم هؤلاء العرب فارجِعْ واجلِسْ في بيتك كالنساء. ألا تقدر على صدّ هؤلاء القوم الذين يأكلون الضب؟ فأجابه قائده: إنهم ليسوا أناسًا بل هم عفاريت حيث يتقدمون قافزين على حدّ السيوف وأسِنّة الرماح.

و لم تكن هذه الشجاعة منحصرة في الرجال فحسب، بل تحيّرني دائمًا التضحية التي قدمتْها إحدى الأمهات. لما وقعت معركة القادسية في العراق ضد الفُرس في عهد عمر ﷺ، أتى كسرى بالفيلة في الحرب، فأخذت إبل المسلمين تنفر منها، فلحقت بهم أضرار جسيمة فادحة، وقُتل الكثير منهم. فقرر المسلمون ذات يوم ألاّ ينسحبوا من ساحة القتال ما لم يهزموا العدو. وجمعت الصحابية الخنساء – رضي الله عنها – أبناءها الأربعة وقالت لهم: يا بَنِيّ، لقد أهلكَ أبوكم كل ما كان يملك من مال وعقار، وألجأني للذهاب إلى أخي ليعطيني مما عنده، فذهبت إليه، فأكرمني وأعطاني نصف ما يملك من المال، فأخذته ورجعت إلى أبيكم، وقلت له: خُذ هذا المال وعِشْ براحة. ولكنه أضاعه أيضًا، فاضطرني للذهاب إلى أخي ثانية، فذهبت فأعزَّني وأكرمني وأعطاني نصف ما بقي عنده من المال. فرجعتُ به، ولكن أباكم ضيّعه أيضًا، فاضطررت إلى العودة إلى أخي مرة ثالثة، فأعطاني نصف ما بقي عنده من المال، ولكن أباكم ضيّعه أيضًا، فمات بدون أن يترك وراءه شيئًا. وكنت لا أزال في شبابي، ولو أصبحتُ بغيّةً بحسب تقاليد المجتمع العربي لما كان عليّ من لوم، إذ لم يحسن إلي أبوكم في حياته و لم يترك لي بعده مالاً، لكني حافظتُ على عفافي من أجلكم. فإن لي حقوقًا كثيرة عليكم، وسيقع غدًا بين الكفر والإسلام قتال مرير حاسم، فإذا رجعتم من القتال غير منتصرين فسأقول لربي إن أبنائي لم يؤدوا لي حقوقي وأنا لا أتنازل عنها. وبعد تحريض أبنائها على القتال، خرجت إلى البرية قلقةً وخرّت أمام الله ﷻ في انفراد ساجدةً باكية وقالت: رب، قد أرسلتُ أبنائي الأربعة ليموتوا في سبيل دينك، ولكنك قادر أن تعود بهم أحياء. فاستجاب الله دعاءها، وكتب الله بفضله الفتح للمسلمين ورجع أبناؤها كلهم أحياء. (الطبري، والاستيعاب: باب النساء وكُناهن، باب الخاء: خنساء بنت عمرو السلمية)

لم تكن هذه الشجاعة والبسالة إلا نتيجة الإيمان بالآخرة. لقد كانوا موقنين أن نجاة العالم منوط بالإسلام، فكانوا يقولون: إذا متنا فلا حرج ولا ضير، لأن الدنيا ستحيا بموتنا، ولأن الإسلام سيصبح غالبًا بتضحياتنا.

لا شك أنه يحق لقائل أن يعترض اليوم: لم يعُد الإسلام غالبًا اليوم. ولكن الواقع أن المسلمين لا يزالون يتمتعون بالعظمة رغم انحطاطهم اليوم، حيث إن العالم كله يذكر دينهم باحترام بسبب كثرتهم. ما هو سبب هذا الرعب، يا ترى؟ إنما سببه تلك التضحيات التي قدّمها المسلمون الأوائل الذين كانوا في بعض الأحيان يبيتون جياعًا ويصبحون جياعًا، وإذا بليت عمامة أحدهم لم يجد عمامة أخرى، وإذا انكسر حذاؤه لم يجد حذاء آخر. إن هذا الرعب ليس إلا نتيجة تضحيات آبائكم هؤلاء الأولين. يُقال إن الصيت الحسن أعظم من العمل، وهذا صدق وحق، إذ لا شك أن أعمال المسلمين اليوم ليست عظيمة، ولكن العالم كله يهاب اسمهم. كان المسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا أن لصًّا دخل في بيت "رُسْتُمْ"◈ فقبض عليه "رستم"، فبدأ الاثنان يتصارعان، وكان اللص لا يعلم أن الذي يُصارعه هو "رستم" نفسه، بل ظن أنه يُصارع خادمه. فألقى اللص "رستم" على الأرض وجلس على صدره وهمَّ بضرب عنقه، فصاح "رستم" من تحته وقال: ها قد جاء "رستم". فنـــزل اللص من على صدره وهرب.

فترى أن اللص تصارع مع "رستم" وصرعه، ولكنه لم يستطع أن يصرع اسمه لما كان لاسم "رستم" من هيبة في القلوب. فالذين يقدمون التضحيات يتركون وراءهم اسمًا حسنًا. لا شك أنهم يموتون إلا أن صيتهم الحسن يُدافع عن أولادهم، أما في الآخرة فيعطيهم الله جزاءً خالدًا يفوق التصور.

إذًا، فالله سبحانه وتعالى قد بين في قوله: ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أن من صفات المؤمنين أنهم يمضون قدمًا في مجال التضحيات غير مكترثين بسبب إيمانهم بوعد الله سبحانه وتعالى، موقنين أن تضحياتهم ستُعزّ قومهم وتُكسبهم رضوان الله سبحانه وتعالى. مما يعني أنهم يكونون موقنين تمامًا بالفتوحات العظيمة التي ستظهر في المستقبل، فيقدمون في سبيلها كل غال ورخيص بلا تردد.

◈ هو أحد أبطال الفرس. (المترجم)

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

يَعمَهون: عمَه يعمَه عَمَهًا وعموهيَّة وعَمَهانًا: تردَّدَ في الضلال؛ وتحيَّرَ في منازعة أو طريق. وعن الزمخشري (في "الكشاف"): العمه كالعمى غير أن العمى عام في البصر والبصيرة، والعمه خاص بالبصيرة فلا يقال: أعمهُ العينِ (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله هنا أن السبب الأساس لكفر الكافرين وسوء أعمالهم هو إنكارهم الآخرة. إنهم لا يؤمنون بأي جزاء ولا عقاب فلا يفكّرون فيما يفعلون، ولا يشعرون بضرورة التدبر في الحق الذي جاءهم وإصلاحِ أعمالهم وتغيير سلوكهم. ولو كان عندهم يقين بأنهم ماثلون أمام الله ﷻ في يوم من الأيام ليحاسبهم على أعمالهم ويعاقبهم على سيئاتهم، لغيّروا سلوكهم وأصبحوا أكثر جدية فيما يفعلون، ولكنهم قد فقدوا كل إحساس بالمؤاخذة والحساب، فأصبحوا أغبياء جاهلين بحيث إنهم يجدون المتعة في أعمالهم السيئة أيضًا، ويتفاخرون بها عوضًا عن استنكارها. لماذا لا يُدخل المرء يده في جُحر الحية؟ ولماذا لا يقفز في النيران الملتهبة؟ ولماذا لا يقتحم عرين الأسد؟ ولماذا لا يشرب كأس السم؟ إنما سببه إدراكه أنه لو أدخل يده في جُحر الحية لـــهلك حتمًا، ولو قفز في النيران لاحترق يقينًا، ولو اقتحم عرين الأسد لافترسه، ولو شرب كأس السم لقتله. فلو كان عند المرء مثل هذا الإيمان بالآخرة فكيف يتجاسر على ارتكاب إثم؟ إن أكبر سبب لجرأة الناس على الذنوب وإنكار الأنبياء أن قلوبهم لا توقن بالآخرة، بل يقول الواحد منهم بكل جسارة كما يُقال بلغتنا البنجابية ما معناه: دعونا نتمتع بهذه الدنيا، فمن ذا الذي رأى الآخرة حتى نترك من أجلها متع الدنيا.

فالحق أن القيام بالحسنات أو ارتكاب السيئات وثيق الصلة بالإيمان بالجزاء والعقاب، ولذلك أوضح الله ﷻ هنا أن الذين لا يؤمنون بالآخرة يستحسنون أعمالهم السيئة، أي لا يرون فرقًا بين الخير والشر. وذلك لأنه إذا لم يكن هناك أي نتيجة.. أي لم يكن ثمة ثواب على العمل الحسن ولا عقاب على العمل السيئ، فلا جدوى من القول إن هذه حسنة وتلك سيئة.

وهذه الآية تدل أيضًا على أن الأعمال بالنيّات، ذلك لأن الكافر أيضًا يأتي أعمالاً تشبه أعمال المؤمنين، ولكن بما أن أعمالهم تخلو تمامًا من نية أن ينالوا بها رضا الله ﷻ، فلا يستحقون على أعمالهم أي جزاء من عند الله ﷻ. أما المؤمن فإن عمله يأتي بنتيجة رائعة لأنه يكون مصحوبًا بنية حسنة، إذ يبتغي به مرضاة الله ﷻ.

يعترض البعض على قول الله ﷻ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ ويقول: ما دام الله ﷻ هو الذي يُزين للكافرين أعمالهم فما ذنبهم في ذلك؟ (الكشاف)

فليكن معلومًا أن الله ﷻ لا يُشير هنا إلى تقدير خاص بل يُشير إلى إحدى النواميس الطبيعية التي يكمن فيها سرّ الرقي الإنساني، وهي أن المرء إذا مارس عملاً معينًا فترة طويلة أصبح ملائمًا لطبعه وموافقًا لمزاجه فيستحسنه. فقد بين الله ﷻ هنا أن الذين يسلكون الطريق الخاطئ بدلاً من سواء السبيل يرون سوء أعمالهم حسنة في نهاية المطاف لأن من فطرة الإنسان أنه إذا قام بعمل ما فترة طويلة أحبّه واستحسنه. وبما أن الله ﷻ هو خالق فطرة الإنسان فلذلك نسب أعمال هؤلاء إلى نفسه وقال: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ وإلا فليس المراد أن الله ﷻ يُريهم سيئاتهم حسنات، وإنما المعنى أنهم يُسيئون استعمال هذا القانون الطبيعي الرائع حتى إنهم يستحسنون أعمالهم السيئة أيضًا. ومثال ذلك أن الله ﷻ قد خلق النار لنطهو بها الطعام ونستدفئ بها في البرد، ولكن المرء إذا أساء استخدام النار وأحرق بها نفسه، فهذا ذنبه هو، وليس ذنب الله الذي خلق النار. كذلك قد جعل الله ﷻ لرقي الإنسان قانونًا رائعًا بأنه إذا مارس عملاً ما واعتاد عليه استحسنه ومال إليه بطبعه؛ أما إذا أساء البعض استعمال هذا القانون الرائع وانغمس في المعاصي، فرأى سيئاته حسنات وفقًا لهذا القانون، فهذا ذنبه هو، ولا اعتراض على خالق الفطرة ﷻ.

لقد قال النبي ﷺ إن المرء إذا عمل عملاً حسنًا وضعت ملائكة الله على قلبه نقطة بيضاء، وإذا عمل حسنة أخرى وضعت الملائكة على قلبه نقطة بيضاء أخرى، إلى أن يصبح قلبه كله نورانيًا، ويتطهر من كل سوء. وعلى النقيض إذا أتى المرء عملاً سيئًا وضعت الملائكة على قلبه نقطة سوداء، وإذا ارتكب سيئة أخرى وضعت الملائكة عليه نقطة سوداء أخرى، حتى تغطي البقع السوداء قلبه كله فيصبح كله أسود مظلمًا، وتحترق حسناته كلها.•

والحق أن هذا الحديث أيضًا إشارةٌ إلى هذه الحقيقة نفسها وشرحٌ لهذا القانون الفطري نفسه بأن المرء إذا داوم على الحسنات أصبحت جزءًا من نفسه، وإذا داوم على السيئات أصبحت جزءًا من نفسه؛ والقاعدة أن ما يصبح جزءًا من نفس الإنسان يبدو له حسنًا لا سيئًا. ولولا أن الله ﷻ أودع هذا القانون الرائع في الفطرة الإنسانية رحمةً بالعباد، لصعب عليهم القيام بالحسنات أو الدوامُ على أي عمل، إلا أن هذا القانون سهّل على الإنسان رحلته إلى الحسنات، فيبدو له كل عمل أسهل من التالي. هل تعرف كيف يصبح المرء ماهرًا في فنه حتى يمدحه الناس؟ إنما سببه أنه مارس عمله باستمرار حتى أصبح ملائمًا لطبعه فسبق الآخرين في فنه. ولولا أن الله ﷻ أودع هذه الملكة في فطرة الإنسان – أي أنه إذا مارس عملاً فترة

• أقرب رواية بهذا المعنى هي: عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنّا عِنْدَ عُمَرَ. فَقَالَ: أَيّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللّه ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ: لَعَلّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرّجُلِ فِي أَهْلِه وَجَارِه؟ قَالُوا: أَجَلْ. قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصّلاَةُ وَالصّيَامُ وَالصّدَقَةُ. وَلَكِنْ أَيّكُمْ سَمِعَ النّبِيّ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ الّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ. فَقُلْتُ: أَنَا. قَالَ: أَنْتَ، لله أَبُوكَ قال حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه ﷺ يَقُولُ: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودا عُودا. فَأَيّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصّفَا، فَلاَ تَضُرّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ؛ وَالاَخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادا كَالْكُوزِ مُجَخّيا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرا، إِلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ." (مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا) (المترجم)

طويلة أصبح ملائمًا لطبعه ومزاجه – لم يتقدم أي إنسان في مجال فنه وحرفته. ونفس القانون الفطري هو ساري المفعول في مجال الحسنات والسيئات أيضًا. فإن الإنسان عندما يعمل حسنة ما أول مرة تشقّ على نفسه، ولكنه حين يواظب عليها تسري إلى كيانه تدريجيًا حتى يستحيل عليه تركها. كذلك عندما يقترف أحد السيئة للمرة الأولى يصيبه القلق والخوف، ولكنها تصبح فيما بعد بمنـــزلة الغذاء له شيئًا فشيئًا حتى يصعب عليه اجتنابها.

باختصار إن الله ﷻ قد أشار هنا إلى هذا القانون الفطري، وبين أن إنكار هؤلاء قد جعلهم لا يخافون حسابًا ولا عقابًا، فأصبحوا متجاسرين على ارتكاب المعاصي، واستمرارهم فيه قد ران على قلوبهم بحيث يرون الآن أعمالهم السيئة حسنة. والحق أن حالهم يماثل حال اللص الذي جاء مرةً إلى الخليفة الأول ﷺ (للمسيح الموعود عليه السلام) للعلاج، فأراد ﷺ نصحه وقال: إن الله ﷻ لم يعطك هذه الأيدي والأرجل لتأكل بها الحرام، وإنما أعطاك إياها لتكسب بها الرزق الحلال. لِمَ لا تمتنع عن السرقة وتكسب الرزق الحلال؟ فاحمرت عينا اللص غيظًا وقال: حضرة الشيخ، إذا كان ما أكسبه حرامًا فما هو الكسب الحلال إذن؟ فعندما تستمتعون بنوم هادئ عميق نخرج أنا وأصحابي واضعين أرواحنا على أكفنا، إذ لو علم بوجودنا أحد لقتلنا بالرصاص، فما دمنا نقوم بالسرقة معرّضين حياتنا للخطر فمن ذا الذي يمكن أن يكون أكثر منا كسبًا للحلال؟ فأدرك حضرته ﷺ أن هذا اللص قد اعتاد السرقة بحيث إن فطرته قد أصحبت ممسوخة مشوهة، فلم يعُد يرَى السرقة عملاً سيئًا، فلن ينفعه الوعظ بالنقاش والجدال. ويقول حضرته ﷺ: فغيّرت مجرى الحديث لأستدرجه بعد أن يكون قد نسي ما قلت له. وبعد برهة من الزمان قلت له: هَلا تخبرني كيف تقومون بالسرقة؟ فقال: الحق أن شخصًا واحدًا لا يستطيع السرقة، بل نكون سبعة أشخاص، فأحدنا يتجسس على البيت ويكون عادةً من السقاة أو الكناسين في البيوت، لأن السرقة لا تتم إلا بعد التجسس، فهو الذي يُخبرنا عن الغرف والأبواب وخزينة المال والمجوهرات في البيت الذي نريد أن نسرق منه. ثم بعد ذلك نحتاج إلى شخص ماهر لاختراق الجدار بحيث لا يُحدث

صوتًا يوقظ أهل البيت. ثم نحتاج إلى شخص ثالث خبير في فتح أقفال الصناديق والخزائن ويبدأ عمله بعد خرق الجدار. ثم هناك شخص رابع عالي الخبرة في أن يمشي مشية لا تُحدث صوتًا، والشخص الثالث يُخرج الأموال من الصناديق والخزائن ويناوله إياها. وهناك شخص خامس يقف على رأس الشارع ليحذّرنا بالإشارة كالتصفير مثلاً إذا ما رأى هنالك شخصًا. ونحن الخمسة نلبس سراويل قصيرة ضيقة، وإذا رأى الناس أحدًا منا أيقنوا بأنه سارق، ولذلك يكون في عصابتنا شخص سادس يمشي هنا وهناك بعيدًا عنا في ثياب الشرفاء حتى لا يشك فيه أحد، فنوصل النقود والمجوهرات إليه. فيذهب بها بكل هدوء إلى شخص سابع، وهذا الشخص يكون أحد الصاغة الذي يصفي الذهب والجواهر والآلئ من الشوائب ويُذيب الذهب، ثم يبيعها، فنتقاسم جميعًا الأموال. يقول الخليفة الأول ﷺ: وعندها قلت للص لو أن الصائغ احتال عليكم، وأكل هذه الأموال التي كسبتموها بشق الأنفس فماذا تفعلون إذن؟ فلم يتمالك اللص نفسه حتى قال: هل يكون أحد خائنًا بحيث يأكل أموال الآخرين؟! فقلت له: الآن فهمتَ الأمر. لقد ثبت من قولك أن فطرتك أيضًا تسلّم بأن أكل أموال الآخرين حرام، ولكن بسبب اعتيادك على السرقة قد أصبحت فطرتك مشوهة حتى ظننت أن مال السرقة رزق حلال.

بيد أن الله ﷻ إذ جعل قانونًا بأن المرء إذا مارس عملاً فترة طويلة بدا له عمله حسنًا بمرور الوقت، فإنه ﷻ قد جعل إزاءه قانونًا آخر بأن مآل العمل السيئ لا يكون حسنًا، ولذلك قد بين ﷻ هنا أن هؤلاء الكافرين الذين يستمتعون بأعمالهم السيئة ويستحسنونها لن ينجوا من عواقبها الوخيمة، بل سيتعرضون بسببها للخزي والهوان في الدنيا، وفي الآخرة هم من الأخسرين.

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

تُلقَّى: تَلقَّى الشيءَ منه: تلقَّنه، إذا أخَذه مِن فيك مشافهةً. (الأقرب، المصباح المنير).

التفسير: يقول الله ﷻ هنا لرسوله الكريم أنه مهما أنكرَك المنكرون وسَبَّك السابّون ولامَك اللائمون فإن الله ﷻ الحكيم العليم يريد تنفيذ خطته في العالم، ولن تستطيع قوة في الدنيا أن تحول دون تحقيق الخطة الإلهية، فليس للحاسدين الآن إلا أن يموتوا كمدًا، إذ لن يستطيعوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم أو يمنعوا الإسلام من التقدم بسيوفهم وسنانهم، لأن الحكيم العليم قد علّمك هذه الأحكام شفاهًا، ومن المستحيل أن ترفض الدنيا تعليمًا يكون من الحكيم العليم، أو تقدر على محوه.

هناك شبهة تنشأ في قلوب البعض فيقولون: قال الله ﷻ في السورة السابقة: ﴿نـــزلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ﴾(الشعراء:١٩٤-١٩٥) بينما يقول هنا إنه ﷻ نفسه قد أنـــزل القرآن عليك مباشرة، فلِمَ هذا الاختلاف؟

لقد بيّنتُ من قبل أيضًا أن نـــزول الروح الأمين على الرسول ﷺ يعني أن الملاك أوصل وحي الله تعالى إلى نبيه ﷺ تمامًا كما أعطاه الله إياه، فلم يبقَ هناك إمكانية للنسيان أو الخطأ فيه. والكلام الذي يكون مبرأ من الخطأ والنسيان ويصل إلى صاحبه لفظًا لفظًا وحرفًا حرفًا وحركةً حركةً فهو كمثل الكلام الذي يَتمّ مشافهةً، لأن الهدف من الكلام الشفوي أن لا يحصل فيه خطأٌ أو لا ينسى الرسول الذي ينـــزل به شيئًا منه، فما دامت كل حيطة قد اتُّخذت بالنسبة للرسول الذي ينـــزل بهذا الكلام حتى لا ينسى منه شيئًا ولا يُخطئ في نقله، وبالنسبة إلى المرسل إليه أيضًا كي لا ينسى شيئًا منه أو يخطئ فيه، فقد أصبح مثل الكلام الشفوي تمامًا.

فثبت أن قوله ﷻ في هذه السورة: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ لا يتعارض مع قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿نَـــزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ﴾، بل هو بمثابة شرح وتوضيح له.

الحقيقة أن الله تعالى قد ردّ في هذه الآية على اعتراض يثيره المسيحيون بأن الله تعالى قد كلّم موسى شفاهةً، وأما محمد (ﷺ) فقد نـــزل عليه جبريل فقط. لقد

بين الله ﷻ هنا أنه قد كلّم محمدًا ﷺ أيضًا شفاهةً، أما كون الروح الأمين واسطة بينهما فليس إلا على سبيل التمثل، إذ لا غبار على كلام الله مع النبي ﷺ مباشرة على الإطلاق.

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

آنستُ: آنس الشيءَ: أبصرَه؛ وآنسَ الصوتَ: سمعه وأحسَّ به. (الأقرب)

شهاب: الشهاب: شعلةٌ من نار ساطعة؛ أو كلُّ مضيء متولد من نار. (الأقرب)

قبس: القَبَس: شعلةُ نار تؤخذ من معظم النار. (الأقرب)

تصطلون: اصطلى بالنار اصطلاءً: استدفأ بها. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر الله ﷻ هنا قصة موسى عليه السلام كدليل على كونه تعالى لطيفًا وسميعًا، حيث يقول اذكروا لما أبصر موسى نارًا أثناء عودته مع أهله من مَدْين إلى مصر، فقال لأهله امكثوا هنا فإني ذاهب إلى هذه النار، لكي آتيكم بخبر منها أو آتيكم بجمرة منها لتستدفئوا بها.

واعلم أن لفظ ﴿قبس﴾ بدلٌ من لفظ ﴿شهاب﴾ كأن موسى عليه السلام قال: أعني بالشهاب قبسًا.

وبما أن الله تعالى قد استعمل هنا كلمة ﴿نار﴾ لا "النار"، فثبت أن هذا المشهد الذي رآه موسى عليه السلام كان مشهدًا روحانيًا لا ماديًا، لأن الذي يرى النار بالعين المادية لا يقول إني رأيت نارًا، بل يقول إني رأيت النار. كما أن النار المادية لا يراها شخص واحد بل يراها الجميع، ولكن موسى عليه السلام يقول هنا إني أبصرتُ نارًا مما يعني أن أهله لم يروها. إذًا، فإن الآية تعني أن موسى عليه السلام قال لأهله إني رأيت نارًا في الكشف وأرى أن الله تعالى يريد أن أذهب إليها، وها إني ذاهب إليها. وبما أن تلك النار كانت مشهدًا من الكشف، وبما أن رؤية النار في الرؤيا تعني الهدى

(تعطير الأنام)، وبما أن الهداية إما أن تكون خاصةً بالرائي أو تكون لكل القوم، وبما أن موسى عليه السلام كان لا يعلم ما إذا كان الأمر الذي سينكشف عليه خاصا به أم أنه لأهله وقومه كلهم، فلذلك قال لأهله لو كان هذا الهدى خاصًا بي فسآتيكم بخبره، ولو كان مما ينبغي تبليغه إلى الآخرين فسآتيكم منه بقبس لتستدفئوا به، أي سأقرأ عليكم من تلك الأحكام ما يزول به بردكم الروحاني.

واعلم أن كلمة ﴿قبس﴾ وما شابه من الكلمات الواردة هنا لا تدل على نار مادية كما قلت آنفًا، ذلك لأنهم إذا شبهوا شيئًا بشيء وصفوا المشبه بصفات المشبه به. مثلاً إذا شبهتَ أحدًا بالأسد فلن تقول إنه يتكلم كالأسد، بل تقول: إنه يزأر كالأسد. فبما أن التجلي الإلهي قد سُمي هنا ﴿نارًا﴾، فأُطلقتْ على توابعه أيضًا صفات النار.

باختصار إن المراد من النار والقبس هنا ذلك النور الإلهي الذي رآه موسى عليه السلام، وبما أن هذه كانت بداية الوحي عليه، فلم يستطع أن يفهم ما إذا كان النور الذي رآه خاصًا له فقط أم أنه لأهله وقومه أيضًا، بمعنى أنه لم يعرف ما إذا كان ما رآه هو تجلّي النبوة أم تجلّي الولاية، ولذلك قال لأهله إني ذاهب إلى النار فآتيكم منها بخبر، أي إذا كان هذا تجلّي الولاية فسأخبركم بأن الله تعالى قد تفضل علي بكذا وكذا؛ وإذا كان ذلك النور الإلهي لأهلي وقومي.. أي إذا كان تجلّي النبوة لا تجلّي الولاية وكنت مأمورًا بتبليغ هذه التعاليم الآخرين أيضًا فسوف آتي بأحكام ينتفع بها أهلي وقومي ويجدون فيها دفئًا روحانيًا.

فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾

التفسير: لما وصل موسى إلى مكان التجلي بعد إخبار أهله عنه أوحى الله ﷻ إليه وقال: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.. أي أن الإنسان الذي يكون في هذه النار يبارَك، والذي يكون حولها فهو الآخر يبارَك.

قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية إن الذي كان في تلك النار هو الله تعالى (الرازي). وقد قدمت التوراة أيضًا نفس النظرية حيث ورد فيها:

"وظهَر له ملاكُ الرب بلهيبِ نارٍ من وسط عُلَّيْقة. فنظَر وإذ العليقة تتوقد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى: أميلُ الآن لأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة؟ فلما رأى الربُّ أنه مالَ لينظر ناداه اللهُ من وسط العليقة وقال: موسى موسى. فقال: ها أنا ذا. فقال: لا تقترب إلى ههنا. اخلَعْ حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرضٌ مقدسة." (الخروج ٣: ٢-٥)

ولكن القرآن لا يقبل هذه النظرية، إذ يُخبر أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، والبديهي أن الله هو يهب البركة للآخرين، ولا أحد يهبه البركة. وبتعبير آخر يمكننا أن نقول: تباركَ الله، ولكن لا يجوز لنا أن نقول: بُورِكَ الله. إذًا، فلا يصح القول أن المشار إليه في قوله تعالى: ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ هو الله ﷻ.

وتفاديًا لهذه المشكلة قال البعض أن حرف "في" في قوله ﷻ ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ هو بمعنى "وراء"، والمعنى أنه بُورك من أتى وراء هذه النار أي باحثًا عنها.

ولكن هذا المعنى خلاف للأسلوب العربي. لا شك أن حرف "في" يفيد معنى "وراء"، ولكن بشرط أن يكون المذكور بعده شيئًا روحانيًا أو معنويًا، وليس إنسانًا أو شيئًا ماديًا. وبما أن المفسرين يعتبرون النار هنا مادية فلا يمكن أن يُفيد حرف "في" هنا معنى "وراء". فلا يجوز هذا التأويل أيضًا.

ثم إن البعض قد فسر "في" بمعنى القرب، وقال إن المعنى أنه بورك من هو قريب من النار، ويستدلون على صحة موقفهم بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (القرطبي).

ولكن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ نفسه يُبطل موقفهم، لأنه بمعنى القرب، ولا يمكن أن يكون للتعبيرين مفهوم واحد. إذًا، فهذا المعنى أيضًا باطل.

وقد قال البعض أنه مما لا شك فيه أن حرف "مَن" يُستعمل للعقلاء عادة، ولكنه قد ورد هنا لغير ذوي العقول، والمعنى أن الخشب الذي في هذه النار والمكان الذي حولها مباركان بسبب التجلي الإلهي. (البحر المحيط)

ولكن كل هذه المعاني باطلة عندي، وقد وقع المفسرون في هذه المشكلة لأنهم اعتبروا أن النار هنا مادية. ولكن كما أثبتُ من قبل أن لفظ ﴿نارًا﴾ يدل على أن هذا المنظر لم يكن نارًا مادية بل روحانية. ولو سلّمنا بأن تلك النار كانت روحانية وأن المراد منها هو حب الله ﷻ لم يصعب علينا فهم هذه الآية أبدًا؛ ذلك أن رؤية النار في الكشف أو الرؤيا يعني حب الله دائمًا.

إذًا، فالضمير في ﴿بورك﴾ لا يعود إلى الله ﷻ لأنه تعالى منـــزه عن الجسم، ثم إنه تعالى لا يُباركه أحد. كما لا يرجع الضمير في ﴿بورك﴾ إلى موسى عليه السلام أيضًا، بل إن الله ﷻ قد بين هنا قانونًا سماويًا عامًا ألا وهو أن كل من يلتاع بنار حب الله تعالى يُبارَك. وبهذا المعنى لا نضطر لتأويل كلمات ﴿بُورِك﴾، ولا ﴿مَنْ﴾ ولا ﴿فِي﴾، ويتضح مفهوم الآية كل الوضوح، وهو أن الذي يحترق بنار حب الله ﷻ يُصبح مباركًا، وليس هذا فحسب بل إن كل من في صحبته ينال هذه البركة أيضًا.

والحق أن الحب يشبَّه بالنار في جميع لغات العالم، وأن علم تعبير المنام والرؤى أيضًا يُبين لنا أن من رأى في الرؤيا أو الكشف أنه يحترق في النار فإنه سيحظى بالعشق الإلهي. إذًا، فقوله تعالى: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ إنما يعني أن الذي يدخل في هذه النار يصبح مباركًا، أما الذي لا يدخل فيها بل يقف قريبًا منها سينال من هذه البركة أيضًا.

هنا سؤال يطرح نفسه: لو كان موسى عليه السلام هو المراد من قوله ﷻ: ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ فمن ذا الذي أُريد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؟ إذ كان موسى عليه السلام وحيدًا عندها، ولم يكن معه أحد. فثبت أن هذه الآية لا تتحدث عن شخص معين بل تبين قانونًا إلهيًا عامًا بأن الذي يقع في هذه النار ينال البركة، وأن الذي لا

يدخل فيها بل يقترب منها ليستدفئ بها فهو الآخر ينال من هذه البركة. وقد ورد الفعل الماضي ﴿بُورِكَ﴾ هنا بمعنى المضارع.

كان في "دلهي" في قديم الزمان أحد أولياء الله تعالى، فحضر إليه أحد المريدين مرة وقال إنا نؤمن بأن حضرة "كرشنا" وحضرة "رام شندر" نبيّان بُعثا في الهند، ولكني أرى أننا مخطئون في هذه العقيدة، إذ رأيت في الرؤيا نارًا ورأيت أن "كرشنا" فيها، وأن "رام شندر" واقفٌ حولها. فقال له الولي: لقد أخطأتَ في فهم تأويل رؤياك، لأن النار هنا نار حب الله ﷻ، والمراد أن "كرشنا" أشدُّ حبًا لله من "رام شندر"، إذ رأيت الأول داخل النار ورأيت الثاني حولها. (ملفوظات (أردو) المجلد الخامس ص ٤٥٩)

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.. أي أن الله رب العالمين منزه عن كل نقص وعيب، بمعنى أن الذين قالوا إن الله نفسه كان في النار – كما قال أصحاب التوراة – مخطئون كلهم، لأن الله ﷻ بريء من التجسد بأي نوع كان.

كما أن قول الله ﷻ: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى أن الذين يبارك الله فيهم تتجلى بواسطتهم سبوحية الله في الدنيا، فيعملون على تنزيه الله ﷻ عن كل ما يُنسب إليه من عيب، فترى الدنيا وجه الله الجميل بكل جماله وعظمته ثانية.

يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

تهتزّ: اهتزّت الإبلُ: تحرّكتْ في سيرها لِحُداء الحادي. واهتزّ الماء في جريانه: تطلّق. واهتزّ الكوكب في انقضاضه: أسرعَ. (الأقرب)

جانٌّ: الجانُّ حيّةٌ بيضاءُ كَحْلاءُ العين لا تؤذي. (الأقرب)

التفسير: ليس المراد من قول الله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنه تعالى كان في النار حين نادى موسى بهذا الكلام، إذ لا يظهر من أي كلمة من القرآن الكريم بأن هذا الصوت جاء من داخل النار، وإنما يخبرنا القرآن الكريم أن موسى عليه السلام سمع صوتًا أيًا كان مصدره.

الحق أن هذه الآية توضيح لقوله تعالى: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.. أي أن قوله تعالى: ﴿أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ دليلٌ على أن الذي يلتاع بمحبة الله سبحانه وتعالى ينال البركة.. بمعنى أن الذي يلتاع في حبه تعالى يصبح غالبًا، لا بقوة العصا بل بالأدلة والبراهين إذ يُعطَى حكمًا عظيمة، مثلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء غالبين على العالم بالأدلة والبراهين.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فكان مشهدًا من الكشف رآه موسى عليه السلام كما سبق أن بيّنا في تفسير سورة "الشعراء"، وكان المراد من العصا جماعته، حيث يقال باللغة العربية: "فلانٌ شقَّ العصا" أي ترك الجماعة وشتّتَ شملها (المفردات). وقد أخبر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بهذا المشهد أن جماعته ستكون نافعة مثل العصا ما دام يجمع أفرادها على يده ويرعاهم، ولكنهم إذا خرجوا عن طاعته الكاملة وانفصلوا عن كيانه الروحاني أصبحوا حيّةً. ولذلك نجد أن موسى عليه السلام حين ألقى عصاه تحولت حية، فكأنه رأى ما سيكون عليه قومه في غيابه.

فلما ولّى موسى عليه السلام مُدْبرًا برؤية هذا المشهد أوحى الله إليه: ﴿يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾.. أي لماذا تخاف فإن الرسل يحضروننا لنيل الجزاء، لا للعقاب. ولم نُرِك هذا المشهد لنخوّفك به، وإنما لكي نخبرك بالواقع ولنحثّك على العناية بقومك وتربيتهم.

أما قول الله تعالى: ﴿إِلا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيثير البعض شبهةً حوله قائلاً: يبدو من هذا أن بعض الرسل يكون من الظالمين. والحق أن هذا الاعتراض ناتج عن جهل أصحابه بقواعد النحو، لأن من الاستثناء ما يكون متصلاً ومنه ما يكون منقطعًا، بمعنى أن الحديث بعد "إلا" لا يستمر بالضرورة عن الفئة المذكورة من قبل، بل في بعض الأحيان يبدأ الحديث بعده عن فئة أخرى. وعليه فالمراد من هذه الآية أن من يرتكب ظلمًا – وهو ليس بالطبع من فئة الأنبياء – ثم يتوب ويعمل الحسنات قد يشكّ فيما إذا كانت توبته قُبلت أم لا، فليعلمْ أني كثير المغفرة وكثير الرحمة، فلا داعي له – دَعْك عن الأنبياء – أن يخاف.

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٤﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

استيقنتْ: استيقنَ الأمرَ: مثلُ تيقّنَه، وتيقَّنَ الأمرَ: علمه وتحقَّقَه. (الأقرب)

التفسير: والمراد من قوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أن يدك تكون بيضاء ناصعة نورانية كآية من الله ﷻ وليس بسبب مرض.

والحق أن قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ جاء ردًّا على تلك التهمة الشنيعة التي ألصقتها التوراة بموسى عليه السلام حيث ورد فيها: "فأدخلَ يدَه في عُبِّه ثم أخرجَها فإذا يده مصابة بالجُذام◈ مثل الثلج." (الخروج ٤: ٦)

وهذا يعني أن كُتَّاب التوراة اعتبروا بياض يد موسى عليه السلام مرض الجُذام، ولكن القرآن الكريم – الذي نـــزل بعد موسى بألفي عام والذي لم يدّخر اليهود والنصارى وسعًا في إنكاره ومخالفته – يبرّئ ساحة نبيهم من هذه التهمة، فيخبر أن بياض يده لم يكن نتيجة الجذام بل كان آية ربانية عظيمة.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فأخبر الله به موسى عليه السلام أن الكلام الذي أنـــزله عليه هو لقومه، فعليه أن يذهب إليهم ويلصقهم بنفسه، أي يدخلهم في كنفه ويربيهم تربية حسنة، فيخرج منهم رجال من الطراز الأول يكونون مُبرَّئين من العيوب، طاهري القلوب، مرضيين عند الله أو من المقبولين، وسيضيئون العالم بأنوارهم. ولكنهم إذا انفصلوا عنه أي إذا ألقوا تعليمه الروحاني وراء ظهورهم أخلدوا إلى الأرض، وأصبحوا ديدانًا أرضية مثل الحية التي تأكل التراب.

وبالفعل ترى أن أتباع موسى عليه السلام كانوا يقومون بأعمال البناء البسيطة والمتواضعة، و لم يملكوا قوة وحيلة حتى يصبحوا غالبين، ولكن الله ﷻ منحهم الهمة والقوة من خلال تربية موسى عليه السلام فأصبحوا غالبين على قوم العمالقة (الخروج ١٧: ٨-١٥). والحق أن غلبتهم على العمالقة كانت كغلبة الفأر على القط، إذ كان العمالقة يحكمون على أراضي الشام وكنعان، وكانوا ذوي قوة ومنعة، أما أصحاب موسى فكانوا يعيشون عبيدًا ويقومون بالأعمال المتواضعة، لا خبرة لهم بالحكم والسياسة، ولكن الله ﷻ وعد بأنه سيجعل هؤلاء العبيد الذين ظلوا يرزحون تحت قيود العبودية لمئات السنين والجاهلين البسطاء وارثين لأرض

◈ هكذا ورد في الطبعة الأردية للكتاب المقدس، بينما ورد في الطبعة العربية: "بَرْصَاء مثل الثلج". (المترجم)

العمالقة، وسيجعل هذه الأمة العديمة الخبرة بالضرب والقتال غالبة على العمالقة الذين هم خبراء في فنون الضرب والحرب ويملكون كل نوع من العدة والعتاد. وهذا ما حدث فعلاً، وجعل الله تعالى بني إسرائيل غالبين عليهم في نهاية المطاف. لا جرم أنهم قد قالوا لموسى عليه السلام في البداية بسبب جهلهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥)، ولكن الله ﷻ غيّرهم تمامًا بدعاء موسى وتربيته، فألقوا أنفسهم في نيران التضحيات غير خائفين، فانفتحت أمامهم أبواب أرض كنعان، وأصبح هؤلاء العبيد ملوك العالم. ولم يعطهم الله ﷻ المُلك المادي فحسب، بل قد خرج منهم نتيجة عملهم بتعاليم موسى عليه السلام كبار الربانيين والأحبار، بل الأنبياء العظام الذين ظلوا منارات الهداية للإنسانية طيلة أربعة عشر قرنًا. كان هؤلاء الأطهار دليلاً عَمليًا على صدق قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾.

كما أن هؤلاء الربانيين كلهم كانوا معصومين من كل عيب وإثم بحسب قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾. لقد اتهم كُتّاب الكتاب المقدس هؤلاء الأنبياء الذين بعثوا لهداية بني إسرائيل بتهم شتى، فقالوا أن فلانًا منهم مالَ إلى الآلهة الباطلة، وأن فلانًا منهم أمر بقتل إنسان ثم أخذ زوجته، وأن فلانًا كان يكذب. ولكن القرآن الكريم برّأ هؤلاء الأنبياء من هذه التهم، وبين أن الله ﷻ كان قد أخبر موسى سلفًا أنه سيُخرج من قومه ببركة تربيته قومًا نورانيين مبرَّئين من كل عيب ومعصومين من كل ذنب.

ثم يخبر الله ﷻ أن هاتين الآيتين كانتا ضمن الآيات التسع التي أراد أن يبعث بها موسى إلى فرعون وقومه، لأنهم كانوا قومًا خارجين عن الطاعة.

لقد ذكر الله ﷻ هنا من تلك الآيات التسع اثنتين وهما آيتا العصا واليد البيضاء، بينما ذكَر آيتين أُخريين في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٣١).. أي عاقَبْنا آلَ فرعون بعذاب القحط وموت الأولاد ليعودوا إلى الصواب. أما باقي الآيات الخمس فهي مذكورة في قول

الله ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾(الأعراف:١٣٤).

وكل هذه الأنواع من عذابهم مذكورة في سفر الخروج في الكتاب المقدس. والمراد من عذاب الطوفان ما وقع في البحر الأحمر حين أُغرق فرعون وجنوده. كما أيد الله تعالى موسى عليه السلام بإنزال عذاب الجراد على فرعون وقومه، فكثرت الجراد في البلاد ودمرت الزروع، وأخذ الناس يموتون جوعًا. كما أنـــزل الله تعالى عليهم عذاب القمل حيث اشتد البرد وصعب على الناس الاستحمام، فكثرت القمل في رؤوسهم. ثم عاقبهم الله تعالى بعذاب الضفادع.. أي كثرت الأمطار، فتولدت الضفادع في كل مكان. ثم كان هناك عذاب الدم.. وقد يكون المراد منه أنهم أصيبوا بأمراض الدم فخرجت البثور والدمامل بكثرة على أبدانهم، أو أصابهم مرض الرعاف أو البواسير الدموية، أو تفشى فيهم مرض الطاعون الذي يسبب النـــزيف من الأنف والفم ومع الغائط، وأحيانًا يسبب النـــزيف الذي يظل تحت الجلد فتظهر بقع سوداء على الجسد كله، ويموت ما بين سبعين إلى ثمانين بالمئة من المصابين به. (الخروج ١٤: ٢٥-٣١، و١٠: ١٢-١٥، و٩: ١٨-٢٠، و٧: ١٧-٢٢، و٨: ٢-٧ و٨: ١٦-١٨)

إذًا، فقد أنـــزل الله عليهم العذاب تلو العذاب تحذيرًا لهم، وكان في كل عذاب من المزدجر ما يفتح عيونهم ويعيدهم إلى الصواب، ولكنهم ظلوا يقولون في كل مرة إنْ هو إلا خداع.. أي لا شك أن كل هذه الأمور تبدو في ظاهرها آيات من عند الله تعالى ولكنها مجرد مصادفات في الواقع، فأنكروا هذا الآيات الربانية مع أن قلوبهم كانت موقنة أنها ليست مجرد صدفة بل إنها عقاب على سوء أعمالهم. فأنكروها ظلمًا واستكبارًا فحسب، ولم يريدوا الاعتراف بالحق عنادًا وكبرًا. ولكن انظُرْ كيف كان عاقبة هؤلاء المفسدين. وما دام فرعون وأصحابه قد أُهلكوا فكيف يمكن، يا محمد، ألا يلقى معارضوك مصيرًا سيئًا مثلهم؟ إذ يسلكون مسلك فرعون وقومه، فينكرون آيات الله كما أنكروها.